

المجتمع والاقتصاد في تلمسان خلال العصر

الزياني (٧ - ٩ هـ / ١٣ - ١٥ م)

الأستاذ المساعد الدكتور

فؤاد طوهارة

جامعة ٨ ماي ٤٥ قائمة [الجزائر]

المخلص

حرص سلاطين الدولة الزيانية على توفير الأمن والاستقرار، وتأمين طرق النقل والمواصلات والضرب على أيدي كل من تسول له نفسه الاعتداء على الأموال والقوافل، من القبائل المعارضة للسلطة وقطاع الطرق، فاستحدثوا تنظيمات جديدة وفسحوا المجال لإقامة علاقات تجارية متنوعة بين الشمال والجنوب وداخل مدن الدولة وإلى جانب العناية الخاصة بالتجارة الخارجية، فقد توفرت للنشاط التجاري الأسواق الداخلية، فقد توفرت للنشاط التجاري الأسواق الداخلية، التي عرفت بتنظيمها وحسن إدارتها، وتوزيعها حسب طبيعة نشاطها، وإقامة الفنادق خدمة للتجار، مع تفعيل دور المحتسب، وتحديد نظام التسعير لوضع حد لكل أشكال الغش والتدليس.

Abstract

The sultans of Zyani state were attached to maintained security and stability. They secured Tran sportations and punished those from tribes against the authority and the high way men who steal money and attack caravans. So they started new systems and made various trade relation ships between the north and south of the state. In addition to that they gane potential interest of the external traele, by providing the mamkets for the trading activity which is known by its well – organized and good distribwtion occording to the natureof its activity. Also they constructed hotels for merchants, and activated the

role of the accomtant to limitale the system of prise as an end to all shapes of cheafing.

المقدمة

على الرغم من تزايد العناية خلال السنوات الأخيرة بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط على وجه الخصوص، فإن الكثير من القضايا لا تزال محل بحث ونقاش، نظراً لشحه المادة المصدريّة وقلة الدراسات الحديثة بقدر يسمح بالتتبع والتحليل والمقارنة.

يتناول هذا العمل " دراسة تاريخية للمجتمع والاقتصاد في تلمسان خلال العصر الزياني في الفترة المحددة (٧-٩٩هـ / ١٣ - ١٥م) " حسب ما أوردته كتب الرحلة والنوازل والجغرافيا كمادة مصدريّة للواقع للمعاش من خلال مبحثين رئيسين:

المبحث الأول: جعلته بعنوان المجتمع الزياني في تلمسان، حاولت من خلاله أن أقف على طبيعة المجتمع وخصوصياته الدينية والعرقية، موضحاً ما كانت تشكله الفئات الاجتماعية على اختلاف مستويات من تأثير واضح في الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية، كل حسب درجة انتمائه، وقدره تأثيره في السلطة والرعية، في مجتمع لا يؤمن بالعصبية والتميز ولا يحتكم لعادات وتقاليد ملوكية.

المبحث الثاني: كان بعنوان الأوضاع الاقتصادية، ونظراً لشحه المادة المصدريّة وغياب معطيات عديدة تتعلق بكمية الإنتاج، فقد اكتفيت باستقراء ما تضمنته كتب الرحلة والنوازل والجغرافيا من قراءات وصفية النشاط الاقتصادي وتحليلها، وما يتصل به من ظواهر مختلفة تجسد مساعي السلطة السياسية والنخبة الدينية في تنظيم القطاعات الحرفية والتجارية وإعادة ضبطها على الوفاق من المعايير محددة، خدمة للمجتمع وعلى وفق ما تقتضيه الشريعة الإسلامية.

المبحث الأول: المجتمع الزياني

أولاً: أثر بعض العناصر السكانية للمجتمع

(أ) البربر: شكل البربر السواد الأعظم في البناء الاجتماعي للمجتمع الزياني، فيما يعرف بقبيلة زناته التي أستوطنت المغرب الأوسط منذ العصور القديمة وكان لها تأثير واضح في الحياة الاجتماعية والسياسية. (١)

وفي شأن ذلك يقول ابن خلدون: " فاعلم أن جيل زناته في المغرب، جيل قديم، معروف العين والأثر.. والأكثر منهم بالمغرب الأوسط، حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال وطن زناته" (٢)

وقد أطلق اسم زناته جغرافيا على السهل الواقع في الشمال الغربي من تلمسان، هذه المدينة التي أسسها بنو يفرن في العصور القديمة، وكانت منطقة التوطن لقبيلة زناته ذات الفروع المتعددة وثاني أقوى القبائل بعد صنهاجة. (٣)

ومن جملة الفرق الزناتية التي سكنت تلمسان وضواحيها، يذكر ابن خلدون:

" ولهم شعوب أكثر من أن تحصى مثل مغراوة وبني يفرن وجراوة وبني يرنيان ووجديجين وواسين.. وبني مرين وتوجين وبني عبد الواد وبني راشد.. وفي كل واحد من هذه الشعوب بطون متعددة، وكانت مواطن هذا الجيل من لدن جهات طرابلس إلى جبل أوراس والزاب إلى قبلة تلمسان ثم إلى وادي ملوية، وكانت الكثرة والرياسة فيهم قبل الإسلام لجراوة ثم لمغراوة وبني يفرن" (٤)

وجيل زناته في بلاد المغرب، فيما يعرف بالطبقة الثانية (٥) هي زناته المسلمة المستعربة التي تأثرت بالغزوة الهلالية، وأخذت من عادات وتقاليده العرب، وفي ذلك يقول ابن خلدون: " وهم لهذا العهد آخذون من شعار العرب في سكني الخيام، واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتقلب في الأرض، وإيلاف الرحلتين، وتخطف الناس من العمران والإبانة عن الانقياد إلى النصفة، وشعارهم بين البربر اللغة التي يتواطنون بها، وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر". (٦)

فهم على ذلك زناتيون متعربون في أسلوب الحياة والتفكير، فقد تعلموا من العرب الهلالية سكن الخيام، وجعلوا من الإبل والخيول وسيلة للتنقل والترحال، وصاروا يتكلمون لغة لعرب لكنها ما زالت ممزوجة بالفاظ وعبارات زناتية، وما إلى ذلك من مظاهر الحياة وطرق العيش، وهي ليست من خصال العرب الأوائل ولكنها من خصال العرب المستعجمة، لما كان من استعجام ألسنتهم وفقدانهم اللغة العربية السليمة، ومن هؤلاء عرب بني هلال بني عامر بن صعدة، وبني سليم بن منصور. (٧)

أما مغراوة فقد كان موطنها بنوحي الشلف، حيث استقل سلطانها منديل بن عبد الرحمن بتلك الناحية، وشكل مملكة شملت مليانة وتنس وشرشال وما جاورها، وتوسعت إلى متيجة، ثم إلى جبل ونشريس، فشملت الكثير من بلاده ثم أزاحهم عنها بنو عطية الحيو وقومه من بني توجين المجاورين لهم في أعلى منطقة الشلف، أما بنو عبد الواد فقد أحكموا سيطرتهم على نواحي تلمسان، بينما تمكن بنو توجين من المنطقة الممتدة بين الصحراء والتل من بلدة المرية إلى جبل ونشريس، وهكذا أصبح الخطر قائماً على حدود بني عبد الواد من قبل مغراوة وبني توجين. (٨)

وبرز من بطون بني توجين: بنو يدلتن، وبنو قمري، وبنو مادون، وبنو زنداك، وبنو وسيل، وبنو قاضي، وبنو مامت، ويجمع هؤلاء الستة بنو مدن، ثم بنو تبغرين، وبنو برناتن، وبنو منكوش، ويجمع هؤلاء الثلاثة بنو سرغين، ونسب بني زنداك دخيل فيهم، وإنما هم من بطون مغراوة. (٩)

لم يستقر أم بني توجين، ودخل بعضهم في صراع مع بعض، فضعف أمرهم وتلاشت قوتهم، وتغلب بنو عبد الواد على عامة أوطانهم وأحيائهم، وانضم إليهم بنو برناتن وبنو يدلتن، وبقي بعض منهم بجبل ونشريس إلى أن انقرضوا. (١٠)

أما بني يفرن فلم تدم سيطرتهم على إقليم تلمسان طويلاً، فقد دفعت الغزوة الهلالية فروعاً من لواته وهواره إلى الغرب من بينهم بنو عبد الواد، فاستقروا في أراضي المراعي جنوب وهران، وهناك عاشوا حياتهم البدوية واختلطوا مع بني يفرن وأصبحت لهم السيادة عليهم، ثم اكتسبوا بعد ذلك

حق الاستيطان في منطقة وهران وما يليها غرباً حتى تلمسان، واشتد ساعدتهم بتأييد الموحدون لقاء معاونتهم، ثم عهد إليهم بتلمسان فاستقروا بها وفي ما حولها وحصنوها، وأصبحت إقطاعاً ثابتاً لهم. (١١)

ب) العرب

يعود اتصال العرب بمنطقة المغرب الأوسط إلى بدايات الفتح الإسلامي أثناء القرن الثاني للهجرة، ولم يستوطنوها إلا في أواسط القرن الخامس الهجري (١٢)، حين شهد المغرب حدثاً هاماً غير ما كان عليه العرب وجعلهم عنصراً مؤثراً في التركيبة السكانية للمنطقة، وتمثل هذا الحدث في الهجرة المالكية (١٣) أو كما يسميها بعض المؤرخين بالغزوة المالكية. (١٤)

ومن بين القبائل التي حلت بأرض الغرب، بنو سليم، بنو هلال وأحلافهم من الحشم والخلط، والمعلل (١٥)، أما بنو هلال (١٦) فقد توطنوا بين المسيلة وورقلة في المغرب الأوسط، وأصبح لهم إقطاع (١٧) ببلاد الحضنة وقسنطينة وبجاية (١٨) بينما امتدت مضارب قبائل المعلل (١٩) من تلمسان إلى البحر المحيط، حيث كانت مواطنهم بقفار المغرب الأقصى، مجاورين لبني عامر من زغبة في مواطنهم من قبيلة تلمسان. (٢٠)

لقد كانت لهذه القبائل ببطونها المختلفة تأثيرات كبيرة في علاقاتها بالدولة العبد الوادية من جهة، ودول الجوار من جهة أخرى نظراً لما تشكله القبلية كوحدة إدارية ضمن نظام الدولة، وهو ما أكده عبد الباسط بن خليل المصري بقوله: "من كان معه أمير العربان راج أمره، ومن كان عليه كان في أدبار وتخوف". (٢١)

فمنذ بداية عهد الدولة أحس يغمراسن بن زيان بضعف موقفه تجاه جيرانه، خاصة أعراب المعلل، فسارع إلى استقدام قبيلة بني عامر من أوطانهم وأقطعهم أراضي حول تلمسان لصدد أعراب المعلل والذود عن دولته فكانوا بذلك أحلافاً له ضد خصومه وأعدائه من بني مرين وغيرهم. (٢٢)

يقول ابن خلدون: " فلما ملك يغمراسن بن زياد تلمسان ونواحيها، ودخلت زناته إلى التلول والأرياف، كثر عبث المعقل وفسادهم في وطنها فجاء يغمراسن ببني عامر هؤلاء من محلاتهم بصحراء بني يزيد وأنزلهم في جواره بصحراء تلمسان كياداً للمعقل ومزاحمة لهم بأقيالهم فنزلوا هناك، وتبعتهم حميان من بطون بني يزيد.. فصاروا في عداد بني عامر لهذا العهد". (٢٣)

ولما سقطت الدولة العبد الوادية على يد أبي الحسن المريني، هرب جل بني عامر إلى الصحراء، وعادوا بعودة الدولة المحالفين لأبي سعيد عثمان الثاني، وعندما انهارت الدولة للمرة الأخرى تركوا البلاد وهاجروا إلى الصحراء وعلى رأسهم شيخهم صغير بن عامر، حتى نهوض أبي حمو موسي الثاني، فكانوا عصابة له وحامية لدولته. (٢٤)

يقول ابن خلدون: " ولما هلك بنو عبد الواد وأفترق جمعهم، فر صغير إلى الصحراء على عادته، وأقام بالقفز يترب الخوارج ولحق به أكثر قومه من بني معروف بن سعيد، فأجلب بهم على كل ناحية، وخالف أولاد حسين بالمعقل على السلطان أبي عنان أعوام خمسة وخمسين وسبعمائة.. وأوقعت بهم عساكر بني مرين.. وأنحنوا فيهم قتلاً وأسرّاً ولم يزلوا كذلك شريداً في الصحراء، وسويد وبنو يعقوب بمكانهم من المجالات، وفي خطهم عند السلطان حتى هلك السلطان أبو عنان وجاء السلطان أبو حمو أخو السلطان أبي سعيد عثمان لطلب ملك قومه بتلمسان" (٢٥) وإلى جانب ولاء بني عامر لبني عبد الواد، فقد أثبتت عرب سويد من بني زغبة تحالفهم مع يغمراسن بن زيان، ومناصرتهم له في حروبه المختلفة ضد بني مرين وبعض قبائل المعقل مثل بني عبيد الله (٢٦) الذين كانوا في عدااء تام وفي صراع مستمر مع يغمراسن، حتى يقال إنه غزاهم اثنتين وسبعين مرة. (٢٧) ولما استقر أمر هذه القبائل واستفادت من تحالفها مع بني عبد الواد، لم تجد من يقف في وجهها ويصد عدوانها في البلاد "فتشجعت على شن الغارات والأجلا ب بخيلها ورحلها على الحواضر والبوادي، ومن هنا نشأت عندها فكرة الاستيلاء على المغرب والتغلب عليه، فكانت أجلاف العريان من بني سليم وبقايا بني هلال يعيشون في الأرض فساداً ويأخذون الإتاوات من الناس ظلماً وعدواناً" (٢٨).

(ج) الأندلسيون:

إلى جانب البربر والعرب، شهد المغرب الأوسط وافداً جديداً ساهم بقدر كبير في إثراء البنية الاجتماعية والتأثير بشكل واضح في شئون الحياة والسياسة، بحكم الانفتاح الذي أبداه سلاطين الدولة الزيانية في مجتمع لا يؤمن بالعصبية والتميز ولا يحتكم لعادات وتقاليد ملوكية^(٢٩)، يتعلق الأمر بالأندلسيين، ويطلق هذا اللفظ على المسلمين من أهل الأندلس باستثناء البربر الطارئيين كقوة سياسية مهيمنة مرابطة كانت أم موحدية، وبصرف النظر عن الأصول الأولى لهذه الجماعة عربية كانت أم بربرية أم من السكان الأصليين الذين أسلموا فاندمج أحفادهم في المسلمين، أم العبيد الذين اعتقوا فغدوا جزء من مجتمع أسياهم الأوليين بالولاء.^(٣٠)

كان تردد الأندلسيين على المغرب الأوسط منذ القرن (١٠٧هـ / ١٣م) وتواجدوا بكثافة في المجتمع الزياني مع نهاية القرن الثامن وطيلة القرن التاسع للهجرة/ الرابع عشر، والخامس عشر الميلادي، خاصة بعد حروب الاسترداد التي استهدفت معازل المسلمين فسقطت مالقة سنة (٨٩٢هـ / ١٤٨٧م) والمرية سنة (٨٩٣هـ / ١٤٨٨م) وبسطة ووادي أشي سنة (٨٩٥هـ / ١٤٨٩م) وكانت بداية لنهاية دولة الإسلام في الأندلس بسقوط غرناطة سنة (٨٩٧هـ / ١٤٩٢م)^(٣١)، وينقل لنا صاحب كتاب "نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر" بعض حركات الهجرة التي وقعت على إثر سقوط غرناطة فيقول:

"وخرج ما بقي من أهل مالقة في ثلاثة أيام إلى باديس، وأهل المرية في نصف اليوم إلى تلمسان، وخرج كثير من أهل غرناطة إلى بجاية ووهران"^(٣٢)، وهو ما يؤكد اختيارهم لمدين المغرب الأوسط.

لقد كان هؤلاء الوافدون من أهل الأندلس أصحاب مال وصنائع وثقافة، تفوقوا على سواهم في العلوم بصفة عامة وفي الفنون والآداب بصفة خاصة، ونالوا مكانة متميزة في الوسط الاجتماعي وجلبوا اهتمام السلاطين والحكام.^(٣٣)

وإذا نظرنا إلى هذه المعطيات من منظار اجتماعي سياسي، فقد أصبح العنصر الأندلسي أكثر منافسة وتأثيراً من غيره في إدارة شؤون البلاد، ويتضح ذلك من خلال الأدوار التي أسندت لهم طيلة حكم بني زيان.

ومن الأسر الأندلسية التي اشتهرت بأدوارها بنو الملامح القرطبيون الذين نزلوا بتلمسان فاتخذهم السلطان أبو حمو موسي الأول (٧٠٨-٧١٨هـ / ١٣٠٨-١٣١٨م) أمناء على بيت المال وفوض إليهم ضرب السكة من دنانير ودارهم، وأسند لهم مناصب سلطانية كوزارة المال والحجابة، لما يتمتعون به من خبرة ونزاهة فبرز منهم عدد من الوزراء نذكر منهم: محمد بن ميمون بن الملاح الذي جمع بين الوزارة والحجابة في آن واحد، محمد الأشقر بن محمد بن ميمون بن الملاح، إبراهيم بن محمد بن ميمون وهو حفيد أول وزير للسلطان أبي حمو، على بن عبد الله بن الملاح، ومن الأسر النازلة بتلمسان أيضاً آل الأبلبي الذين استعملهم السلطان يغمراسن (٦٣٣-٦٨١هـ / ١٢٣٦-١٢٨٣م) في قيادة الجيش وإدارة المعارك^(٣٤)، وبرز منهم والد أبو عبد الله محمد إبراهيم بن أحمد الأبلبي^(٣٥)، الذي كان قائداً بجهنين (مرقاً لتلمسان العسكري)^(٣٦)، وقد وظف عدداً من الكتاب من أصل أندلسي من بينهم: الفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن داوود بن خطاب الغافقي المرسي.

(٣٧)

إلى جانب المراتب الإدارية والمناصب السلطانية التي تعكس مكانتهم لدى الأسرة الحاكمة، فقد اندمج الكثير منهم في المجتمع وشاركوا العامة في المهن المختلفة، فسكن بعضهم البوادي واحترفوا وأتقنوا أساليبها، فغرسوا الأشجار وأقاموا البساتين، واختص آخرون في البناء، في حين اتجه بعضهم نحو التجارة والصناعات الحرفية المختلفة، ولا شك أن الأندلسيين قد أدخلوا في هذين القطاعين من النشاط فروعاً وطرقاً جديدة.^(٣٨)

لقد كان للهجرة الأندلسية أثر واضح في النهضة العلمية والثقافية التي شهدتها المغرب الأوسط من خلال إسهامات العلماء الوافدين^(٣٩) ودورهم في تفعيل الحياة العلمية والفكرية على رغم تدهور الأوضاع الاجتماعية والسياسية، إذا اشتغلوا بالتدريس فكونوا خلفاءهم من العلماء

والأئمة، وشاركوا في التأليف فتركوا تراثاً علمياً زاخراً، وعن التأثير الثقافي للعنصر الأندلسي، تشير إحدى الدراسات^(٤٠) إلى احتكار الأندلسيين لقطاع التعليم في المغرب الأوسط لاسيما في المدن والحوضر، ودورهم في تدريس علوم اللغة والآداب، والفن والموسيقى، وبينما كان السكان المحليون مسيطرين بصورة تكاد تكون دائمة على ميدان الشريعة والعلوم الدينية، كان النجاح حليف الأندلسيين في الميادين الأدبية الخالصة كافة من الخط والنحو إلى البلاغة والشعر والتاريخ والموسيقى.^(٤١)

(د) اليهود تشير العديد من الدراسات^(٤٢) إلى تواجد اليهود في بلاد الغرب منذ القرن الأول الميلادي مؤكدين بذلك على أن أول استقرار يعود إلى الحقبة الرومانية، ثم انتظمت حركات الهجرة على مدد مختلفة خلال الحكم الوندالي والبيزنطي، واستمرت بشكل ملفت بعد الفتح الإسلامي^(٤٣).

لقد كانت حملات الاضطهاد والمتابعة التي استهدفت سكان الأندلس من المسلمين واليهود مع نهاية (٨٠٨هـ / ١٤م) واستمرت (٩٠٩هـ / ١٥م) لاسيما في مملكة قشتالة وكتالونيا وجزر البليار وغرناطة سبباً في تدفق عدد كبير من اليهود على المدن الساحلية والداخلية للمغرب الأوسط^(٤٤)، ويبدو أن القادمين الجدد قد حظوا برعاية الحكام والسكان المسلمين^(٤٥).

وحول ظروف استقرار اليهود بتلمسان، تشير إحدى الدراسات^(٤٦) إلى استقبالهم من طرف السلطان أبي العباس أحمد العاقل (٨٣٤ - ٨٦٦هـ / ١٤٣١ - ١٤٦٢م) ومنحهم قطعة أرض (المرجة) قرب أسوار المشور، فبنو بها دورهم واستقروا بها، وأصبحت تدعي بدرب اليهود، كما منحت لهم الحرية التي أقرها الشرع في ممارسة شعائرهم الدينية وأنشطتهم التجارية، لهم من الضمان والأمان ما يكسبهم حقوق الرعايا ويلزمهم بواجبات مماثلة، إلا إذا نقضوا العهد كأهل ذمة^(٤٧)، وفي مقابل ذلك يلتزمون بدفع الجزية كشرط من شروط عقد الذمة وتقدر بأربعة دنانير، أو أربعون درهماً بالوزن الشرعي عن كل شخص في كل عام^(٤٨).

وكانت لهم تنظيمات دينية شملت ما يعرب بمجلس الطائفة يرأسه "المقدم" ويدعي كذلك "الشيخ" وهو القائد الروحي للطائفة اليهودية المحلية التي تجمعت وتوحدت حوله نشاطاتها الدينية وسلوكاتها الاجتماعية، فهو الذي يسير نظامها القضائي الداخلي، ويمثلها بصورة رسمية لدى السلطة الحاكمة بتلمسان (٤٩).

ويلاحظ أن هؤلاء اليهود المهاجرين قد نقلوا إلى المغرب الأوسط علاوة عن ثقافتهم الدينية وعاداتهم وأخلاقهم، ما اكتسبوه من مميزات خاصة وعامة في المجتمع الأندلسي الإسلامي، فكان منهم من بلغ درجة كبيرة في العلم والآداب كما كان منهم أطباء، وتجار، وصناع، وأصحاب حرف، وفنون (٥٠).

فالصياغة والصيرفة لم تكن بيد المغاربة المسلمين في أول الأمر، ولم تكن لهم كذلك مهارة كبيرة في صنع الأقمشة والملابس النسوية على الخصوص كنظم العقد، ونسج القيطان، وحبك السفيفة، وتطريز القفطان بالصقلي، وإنما انتقلت إليهم عن طريق اليهود الذين كانوا يباشرونها ويتفننون بها (٥١).

ومن بين الشخصيات اليهودية التي برز حضورها القوى في الدولة الزيانية اليهودي إسحاق هاقادوش، المعروف بـ: "رب النقاة" (Le Maitre Hakadosh Enakaua Isaac) الذي كان طبيباً خاصاً للسلطان أبي العباس أحمد العاقل (٨٤٣ - ٨٦٦هـ / ١٤٣١ - ١٤٦٢م) وأحد المقربين إليه، والحاخام إسحاق برفت بارشيشيت (Barfat Bar Chechet Isaac) المعروف باسم ريباش والذي فاز بتعيين سلطان تلمسان له حاخاماً كبيراً بفضل مساعي طبيب السلطان الخاص (٥٢).

وتذكر إحدى الدراسات (٥٣) اليهودي أستروك كوهين (Astruck Cohen) الذي نال مكانة أكبر لدى الزيانيين، بحث كان مستشاراً للسلطان ورئيساً للطائفة اليهودية في تلمسان قبل

محيي ريباش، هذا إلى جانب شخصيات ثقافية أخرى نذكر منها: علال بن سعدون، يوسف الأشقر، أبراهام الصرفاتي.

ثانياً: فئات المجتمع الزياني وأثرها

أ) فئة الحكام

ارتبط مصطلح الفئة الحاكمة بالوظائف السلطانية المختلفة ومراتبها وما يتصل بها من مهام مسندة حسب التدرج الذي تحدث عنه ابن خلدون، إذ يري أن مهام السلطان الكبرى لا تزيد عن أربع:

الأولى تختص بحماية الرعية كافة، وأدائها الجيش والسلاح، والثانية تتعلق بالمكاتبات والمراسلات للخارج والداخل، وإصدار الأوامر لمن هو بعيد عن السلطان وغائب عنه، والثالثة تهتم بشئون الجبايات والإنفاق وما يتبعها من حسابات، والرابعة تشغل بحجب السلطان ومنع الناس عنه، لكي يتفرغ للنظر فيما يصلح حالهم^(٥٤).

يبدو أن الصورة التي كونها ابن خلدون لمراتب الملك والسلطان، وهي وصف دقيق للطبقة الحاكمة التي تعين السلطان تسيير شئون الدولة، وتعكس في آن واحد المكانة الاجتماعية التي تحضي بها دون غيرها من فئات المجتمع الزياني.

لقد كان سلاطين بني عبد الواد محل تبجيل واحترام، يستأثرون بجميع السلطات ويتلقبون بالألقاب المختلفة يبرزون سلطتهم بما وضعوه من مراسيم، إذا كانوا يمرون في أبهة ومحفوفين بالحرس وسط قرع الطبول والأبواق وكثرة الألوية والرايات^(٥٥)، وهي من مظاهر الأبهة والبذخ التي تضفي على موكب السلطان رونقاً وهيبه تميزه عن غيره.

وتشير المصادر إلى اعتماد شارات الملك والسلطان خاصة في الأعياد والحروب منذ مدة حكم السلطان أبي تاشفين الثاني (٧٩١ - ٧٩٥هـ / ١٣٨٨ - ١٣٩٣م)، عملاً بوصايا والده أبي حمو موسي الثاني (٧٦٠ - ٧٩١هـ / ١٣٥٩ - ١٩٣٨م) بقوله: " يا بني ويستحسن للملك أن يتخذ

رجالاً أنجاداً كفاة أطواداً، يكونون مشائين إذا ركبت، ومنصرفين حيثما سرت، يكون لهم ترتيب في اللباس، ويمتازون بذلك على سائر الناس، ويتزينون بالأقبيية الحسان المختلفات الألوان، وبأيديهم الحراب عليها صغار الرايات، من أنواع الحرير مختلفات لأنهم مما يزيدون في بهاء الملك وجماله، وفخامته وكماله، وهم مما يتزين به الملوك والأمراء".^(٥٦)

أما عن إقامتهم فتصف إحدى الدراسات اهتمامهم بمظاهر السلطنة في إقامتهم لمقرات جديدة، إذا لم يكن يغمراسن (٦٣٣ - ٦٨١هـ / ١٢٣٥ - ١٢٨٢م) بقصر تاغرارت الموحدية القديم، بل أقام قصرًا جديدًا شاهداً على ملكه " واتخذ أمراء بني زيان المشور مقراً رسمياً لإقامتهم، ففيه مساكنهم ومسجدهم ومستودعاتهم، وفي بيوته يقيم الحشم وينزل الأمراء الأجانب وبين أرجائه تنظم حفلات الاستقبال الكبرى"^(٥٧).

ولم يلبث المشور أن عرف ازدهاراً جديداً في عهد أبي حمو موسي الثاني (٧٦٠ - ٧٩١هـ / ١٣٥٩ - ١٣٨٨م) مما يؤكد الحياة الخاصة للطبقة الحاكمة " لقد كانت الزراني تبسط على السطح وعلى طول الحائط تصطف المتاكي، ويتجمع أفراد البلاط حول السلطان جالسين على المتاكي مقابل المناجنا، ويجلس السلطان على كرسي عال، بينما يجلس مباشرة على جانبيه أكابر أقاربه وعظام المملكة، كل على حسب رتبته، وتتجمع الرعية على الزراني خافضين أصواتهم احتراماً لجلالة الملك، ويتحول بينهم خدم يلبسون حريراً مزركشاً يقدمون جميعاً أنواع الطيب ... وعند الليل يدخل رجال حاملون طاولات عريضة ومنخفضة مملوءة بالطعام، وعندما تفرغ الصحون من الطعام تبدل بأخرى بها خضر وفواكه"^(٥٨).

وعن العلاقة بين السلطان وأعوانه فقد حدد أبو حمو موسي الثاني (٧٦٠ - ٧٩١هـ / ١٣٥٩ - ١٣٨٨م) لولده السلطان أبي تاشفين الثاني (٧٩١ - ٧٩٥هـ / ١٣٨٨ - ١٣٩٣م)، مجموعة من الوصايا السياسية التي تضمن السير الحسن لدولته ودوام استمراريته، بقوله: " اعلم يا بني أنه ينبغي لك أن يكون أول داخل عليك مزوارك الموصوف، وعونك المعروف، ليعرفك من ببابك، ومن وزارئك وحجابك، وأرباب دولتك وكتابتك، فأول من يدخل عليك كاتبك ووزيرك، إذ بهما

صلاحك وتديرك، وذلك أهم ما تبتدئ به من أمرك لتلقي إلى الكاتب ما أردت من شرك، ويعرض عليك الكتب الواردة من أقطارك وأمصارك، وذلك بحضور وزيرك المخصوص برأيك وتديرك.. وبعد دخول وزيرك وكاتبك، وقضائك ما أردته من مآربك، يدخل صاحب أشغالك، الموكل بجبايات أموالك، يعرفك بما تحمل وتصير من مالك، وبمحاسبات عمالك، وبجميع أشغالك المختصة بدارك، في إيرادك وإصدارك.. ثم يدخل صاحب شرطتك، وحاكم بلد حضرتك، ليخبرك بما تزايد في ليلتك، حتى لا يخفي عليك شيء من أحوال رعيته..، ثم تدعو للدخول عليك الأقرب فالأقرب من خاصتك وخلصائك، وأشياخ قبيلك وأوليائك، فتشاركهم فيما ظهر لك من أرائك، وتأخذ معهم فيما عليهم وما لهم... ثم تدعو إلى الدخول أشياخ القبائل، المقربين لخدمتك، وقواد أجنادك المستمسكين بحرمته..." (٥٩)

لقد كان بنوزيان يختارون وزراءهم وحجابههم وكتابههم وقضاةهم من عائلات معينة، من ذلك أن غلب الوزراء لم ينحدروا من سلالة الملك، إذا كان يخشي كثيراً طموحهم، ولكن من جماعات ذات قرابة حصلت لهم خبرة في تصريف شؤون الدولة (٦٠).

ويبدو أن للحاجب في عهد يغمراسن (٦٣٣ - ٦٨١هـ / ١٢٣٥ - ١٢٨٢م) أهمية تفوق مرتبة الوزير، ويتضح ذلك من العبارة التي استعملها يحيى بن خلدون حيث قال: "وحاجبه الأقرب ومساوره الأنصح الفقيه عبدون بن محمد الحباك، من فقهاء الحضرة" (٦١) ويواصل حديثه قائلاً: "وخاطبته ملوك الموحدون بذلك، وكان ذا رأي سديد وسياسة، وله في البلد خلف من نخط التجار أخيار" (٦٢)

ويمكن تشخيص ظاهرة اختيار الوزراء حسب مقياس الثقة والقربى فيما قام به يغمراسن بن زيان (٦٣٣ - ٦٨١هـ / ١٢٣٥ - ١٢٨٢م) حينما أسند منصب الوزارة إلى بني مقن وهم إخوة بن زيان من ولاد طاع الله، برز منهم الوزير يحيى بن مقن، ويبدو أن عثمان بن يغمراسن (٦٨١-٧٠٣هـ / ١٢٨٢ - ١٣٠٤م) ساير التقليد الذي أورثه إياه والده، حيث اختار غانم بن محمد الراشدي وهو من بني راشد أحد المقربين لبني عبد الواد وعصبته في أول عهدهم (٦٣).

ومن الكتاب البارزين في البلاط الزياني الفقيه الخطيب العالم أبو عبد الله محمد بن هدية القرشي، بصير بالوثائق، مشهور الفضل والدين، كتب الرسائل عند الملوك الأوائل من بني يغمراسن بن زيان^(٦٤)، أما بخصوص خطة الأشغال فقد احتكرها أقرب الناس إلى السلطان في مقدمتهم عبد الرحمن بن محمد بن الملاح، أبو عبد الله محمد بن علي العصامي، محمد بن قضيب الرصاص، وهي من المراتب السامية التي لا تسند إلى لأهل الثقة وحسن السيرة وفضيلة الأخلاق^(٦٥).

(ب) فئة العلماء والفقهاء:

شكلت فئة العلماء والفقهاء مكانة متميزة في المغرب الأوسط لتعدد مجالات اختصاصها في المجتمع، ولارتباطها بشئون السياسة والحكم، وقد نالت حيزاً من وصايا السلطان أبي حمو موسي الثاني (٧٦٠ - ٧٩١ هـ / ١٣٥٩ - ١٣٨٨ م) لولده أبي تاشفين الثاني (٧٩١ - ٧٩٥ هـ / ١٣٨٨ - ١٣٩٣ م)، حيث أمره باتخاذ فقيه يخص نفسه به، ويستشير به في أمور الدين والسياسة، فحثه بقوله: "فلتخير لنفسك فقيهاً عالماً موسوماً بالصلاح، سالكاً طرق الرشاد والفلاح، يرشد إلى الهدى، ويهدي إلى الرشاد، ويسد الأمور ويأمر بالسداد، ليبين لك ما أشكل عليك من الأحكام، وما تأتبه من الحلال وتدعه من الحرام وما تقف عنده من الأمور الشرعية، التي هي قوام الملك والرعية، وما يصلح لك من الأمور الدنيوية والآخروية، ويحولك للموعظة ويذكرك أحوال الآخرة"^(٦٦).

يبدو أن الوظائف المسندة لفئة العلماء والفقهاء كثيرة ومتعددة منها: القضاء والفتوي والشهادة والتوثيق، والخطابة والحسبة والنظر على الأوقاف وأموال اليتامي وغيرها من المراتب^(٦٧) وربما مال أكثر الفقهاء إلى تولي الرتب الشرعية، ولهذا فرق ابن خلدون بين الوظائف الدينية والمدنية، فسمي الأولى الخطط الدينية، وهي كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى^(٦٨)، وسمي الثانية الخطط السلطانية والرتب المملوكية كالوزارة والكتابة والحجابه^(٦٩)، وبحكم الوظائف المتعددة لهذه الفئة، فقد كانوا مستشارين للسلطين وكانوا في أغلب الأحيان موظفين في الدولة ككتاب وقضاة، وأصحاب حسبة^(٧٠).

أما عن جهودهم في التعامل مع السلطة الزيانية فقد كانت متباينة بين مؤيد ومشارك في الحكم ومعارض رافض لذلك، ومحاييد راكن للاعتزال متفرغ للعلم والتأليف، وقد شخص العالم والفقهاء أبو العباس أحمد الونشريسي تطور علاقة العلماء والفقهاء بالسلطين والأمراء بقوله: "وأعلم أن شر العلماء علماء السلطين، وللعلماء معهم أحوال، فكان الصدر الأول يفرون منهم وهم يطلبونهم.. ثم جاء أهل العصر الثاني فطمحت نفوسهم إلى دنيا ما حصل لهم، ومنعهم قرب العهد بالخير عن إتيانهم، فكانوا لا يأتونهم، فإن دعوهم أجابوهم إلا القليل، فانتقصوهم عما كان لغيرهم بقدر ما نقصوا من منابذتهم، ثم كان فيمن بعدهم من يأتيتهم بلا دعوة وأكثرهم إذا دعي أجاب، فاستنقصوا بقدر ذلك أيضاً، ثم تطارح جمهور من بعدهم عليهم فامتنعوا عن دعاء غيرهم إلا على جهة الفضل ومحبة المدحة منهم، فلم يبقوا عليهم من ذلك إلا النزر اليسير وصرفوهم لأجله في أنواع السحر والخدم إلا القليل، وهم ينتظرون صرفهم والتصريح بالاستغناء عنهم وعدم الحاجة إليهم." (٧١)

ومن الفقهاء الذين ركنوا إلى الاعتزال رغبة منهم في التفرغ للعلم والتأليف أو للعبادة والتصوف:

الفقيه العالم أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الشهير بابن زاغو المغراوي التلمساني^(٧٢) حيث فاق أقرانه ونظرائه في العلم والعرفان وضرب به المثل في الزهد والعبادة، وحاز قصب السبق في الحديث والأصول والمنطق مع الذوق لسليم والفهم المستقيم. (٧٣)

ونجد كذلك الفقيه إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي المظماطي^(٧٤)، الذي انتهت إليه الرئاسة في التدريس والفتوى في بلاد المغرب، وذاع صيته حتى بقي السلطان يغمراسن (٦٣٣ . ٦٨١ هـ / ١٢٣٥ - ١٢٨٢م) يخطبه للورود على تلمسان، فيمتنع، يرد زائراً ويقوم أشهراً وينصرف إلى تنس ونزولاً عند رغبة فقهاء وعلماء تلمسان، استوطنها ودرس بها، وظل بعيداً عن الرتب السلطانية.

ومن أشهر شيوخ التصوف، العالم والفقيه أبو عبد الله بن أبي بكر بن مرزوق^(٧٥) الذي كان يشتغل بالقراءة والفقه والحديث، ثم انكب على كتب التصوف وانقطع للعبادة، وتجرد للمطالعة، ونسخ الكتب والمصاحف، ونال من احترام السلاطين وتقديرهم ما جعله يتفادى لقاءهم خاصة في مسجد الطلبة حيث يصلي الشيخ " فتارة يتلبس بالنافلة حتى ييأس السلطان يغمراسن من الانتظار، فينصرف، وتارة يخرج من المسجد دون أن يشعر به السلطان".^(٧٦)

ومن الفقهاء الذين وقفوا موقف المعارضة للسلطان والتزموا الجراة في قول الحق والنصح عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الفقيه العالم أبو العباس أحمد الونشريسي الذي سارع إلى الإعلان عن مواقفه الصريحة من سلاطين بني زيان منتقداً ما يقومون به من تصرفات غير شرعية، كتقديم الجهال على العلماء في تولية المناصب الشرعية كالقضاء والفتوى، وعددها من البدع المحرمة التي لا يجوز السكوت عنها^(٧٧)، وعارض سياسة السلطان أبي عبد الله محمد المتوكل (٨٦٦ - ٨٧٣هـ / ١٤٦٢ - ١٤٦٨م) واتهمه بالضعف والاستكانة، وعدم قدرته على تسيير شؤون الدولة وإدارة الأحداث بتعقل وحكمة^(٧٨)، وكيف ما كان السبب " فقد حصلت له كائنه من جهة السلطان في أول محرم من عام أربع وسبعين وثمانمائة (٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) فانتهبت داره، وفر إلى مدينة فاس واستوطنها"^(٧٩). أما الفقيه أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي الملياني^(٨٠)، فقد رفض البقاء في مدينة تلمسان مدة طويلة بسبب معارضته لسياسة بني زيان حيث عاب عليهم تدهور الأخلاق وانتشار الفساد، وانتقد موقف السلطان أبي عبد الله محمد الخامس بن محمد الثابت (٩١٠ - ٩٢٢هـ / ١٥٠٥ - ١٥١٦م) نتيجة لمسلمته للأسبان ومصالحته لهم بعد احتلال مدينة وهران، وظل ينتقد سياسة أبي حمو الثالث ابن محمد الثابت (٩٢٢ - ٩٣٤هـ / ١٥١٨ - ١٥٢٨م) إزاء مواقفه المخزية من العدو، وسارع للاتصال بالأتراك إلى جانب أهل تلمسان لمقاومة الأسبان.^(٨١)

لقد كان هؤلاء العلماء والفقهاء إنموذجاً لفئة فضلت الابتعاد عن الحكم، ورفضت أن تكون موضع تسخير لخدمتهم والدعاية لشخصهم، والكتابة باسمهم ونحو ذلك، ولعل من أسباب انعزال

بعضهم والتجائهم إلى الزهد والتصوف هو ضغط السلاطين عليهم مع جهرهم بالظلم والسكوت عن المنكر والفساد. (٨٢)

ومن الفقهاء الذين ثبت اختيارهم من طرف السلطة الحاكمة في تلمسان، وأسهموا بقدر كبير في استقرار الدولة وتأطير شئون الرعية فئة القضاة، إذا يتم اختيارهم من ذوي المكانة في العلوم الشرعية على مذهب الإمام مالك، ويعينون من قبل السلطان للنظر في القضايا الشرعية، نذكر منهم عائلة العقباني التي برز منها عدد من القضاة أمثال: قاسم بن سعيد بن محمد العقباني (٨٣) علم الأعلام، الفقيه الإمام ولي قضاء تلمسان في صغره، وعكف على تعليم العلوم وتدرّس المعدوم منها والمعلوم، فأفاد الأفراد وأمنع جهابذة النقاد، حضر جنازته السلطان أبو العباس أحمد العاقل (٨٣٤). ٨٦٦هـ / ١٤٣١ - ١٤٦٢م) فمن دونه، والقاضي إبراهيم بن قاسم بن سعيد العقباني (٨٤)، من كبار علماء تلمسان، حصل وبرع وألف وأفقي، وتولي قضاء الجماعة بتلمسان بعد عزل أبن أخيه، والفقيه العالم محمد بن أحمد بنقاسم بن سعيد العقباني (٨٥)، من كبار علماء تلمسان وفقائها، ولي قضاء الجماعة وكان عارفاً بالنوازل ذا ملكة في التصوف.

وإلى جانب عائلة العقباني، برز عدد آخر من القضاة من أمثال: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر التميمي (٨٦) ومحمد أبو عبد الله التلمساني المعروف باسم حمو الشريف (٨٧).

أما عن الوضع الاجتماعي فقد كان القضاء يتقاضون مرتباتهم من بيت المال، إذ لا يزيد راتب قاضي القضاء في بجاية عن خمسة عشر ديناراً شهرياً، وهي أجرة لا توافق مكانتهم الاجتماعية كموظفين كبار في الدولة، خاصة إذا ما قورنت بما يتقاضاه قاضي الجماعة بفاس خلال المدة نفسها، فكانت أجرته تقدر بمئتين من الذهب يومياً، إلى جانب بعض الامتيازات من كسوة وإقطاع ومؤونه. (٨٨)

وفي مقابل ذلك نوهت بعض المصادر بسعة حال بعض القضاة والفقهاء في تلمسان، حيث ذكر ابن مرزوق أن هؤلاء أصحاب أموال وثروة أكثر من أن توصف. (٨٩)

وعلى الرغم من هذا فقد امتنع عدد آخر من القضاء من أخذ الأجرة وعدوا المال الذي يتقاضاه نظراؤهم من القضاء مالا حراماً رغم ضيق أحوالهم وسوءها، واستعان بعضهم بكتب الصدقات.^(٩٠)

ومن العلماء الذين ارتبط اسمهم بسلاطين بني زيان وسخروا أقلامهم في هذا الاتجاه: محمد ابن عبد الله بن عبد الجليل التسنسي^(٩١)، الذي نبغ في علوم عصره خاصة رواية الحديث والأدب والتواريخ وأسهم بقدر كبير في حركة التأليف والتدريس، أما تأليفه فليست كثيرة، إذا لا يزيد عددها على ثلاثة، منها كتابة " نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان"، الذي أهده إلى السلطان محمد المتوكل (٨٦٦ - ٨٧٣هـ / ١٤٦٢ - ١٤٦٨م) بهدف التقرب منه وكسب وده وتعاطفه بإظهار مكانة بني زيان في التاريخ والنسب والآثار، ولذلك مدح السلطان وبرهن على شرف أسلافه، وأبرز مدي إسهامه في الحضارة ونفوذ دولتهم^(٩٢)، أما كتابة " راح الأرواح فيما قاله المولي أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح، وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح " فهو كتاب في الأدب يضم شعر السلطان أبي حمو والمدائح التي قيلت فيه وما خطر ببال المؤلف من النكت والأمثال والطرائف، فكان من الموضوعات التي تقدم إلى مجالس السلاطين للتسلية والترفيه^(٩٣)، وقد برز أبو زكريا يحيى بن خلدون من خلال تصنيفه لكتاب "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد" بطلب من السلطان أبي حمو موسي الثاني (٧٦٠ - ٧٩١هـ / ١٣٥٩ - ١٣٨٨م) بغرض تخليد تاريخ الدولة الزيانية والوقوف على إنجازات سلاطينها وسيرتهم.^(٩٤)

وتشير إحدى الدراسات إلى الفقيه والعالم الأصولي محمد بن عبد الرحمن الحوضي^(٩٥)، الذي كان ينشد المال والجاه والحضوة في بلاط السلطان أبي عبد الله الزياني، لا ينبه إلى الخطر الداهم، بل ينشد رضي ملكه بقطع النظر عما يحدث في المملكة في مظالم وفوضى وحروب.^(٩٦)

ج) أصحاب المهن والصنائع

تشكل هذه الفئة طبقة اجتماعية متميزة من حيث تعدد أشكالها وتنوعها في المغرب الأوسط، وتضم أنشطة عدة مختلفة تفسر في مضمونها المستوي المعيشي والمكانة الاجتماعية. لقد عبرت بعض المصادر عن الوضع المادي المريح لفئة التجار، فيذكرهم الونشريسي بقوله: أكابر التجار ذوي الأموال الطائلة^(٩٧)، ويصفهم الوزان بأنهم " أناس منصفون مخلصون جداً وأمناء في تجارتهم... وهم وافروا الغني أملاكاً ونقوداً"^(٩٨)، وينطبق هذا الوصف على كبار التجار الذين استطاعوا بفضل نشاطهم تبوأ مكانة اجتماعية راقية، نظراً للأرباح التي يجنونها من تجارتهم، فاجتهدوا في شراء العقارات وبناء الدور والقصور وشراء العبيد والخدم، ونافسوا بذلك أصحاب المناصب العليا من ذوي الدخل الكبير.^(٩٩)

أما فئة التجار الصغار، فلم يكن حالهم كحال أكابرهم فهم يزاولون نشاطهم التجاري بشكل محدود، وفي نطاق ضيق بين المدن والبادي^(١٠٠)، وعلى رغم ذلك فأنهم كانوا يجنون أرباحاً مكنتهم من تحسين أحوالهم ومستواهم المعيشي^(١٠١)، ولا شك أن أرباب الحرفيين على اختلاف صنائعهم كالعطارين والوارقين والقبابين والخراطين والإسكافيين والسراجين والحداين والدباغين وغيرها من الصنائع^(١٠٢)، كانوا يتمتعون بمستوي معيشي راق جداً نتيجة للأرباح التي يحققونها من وراء ترويج منتجاتهم الحرفية، فقد كان أبو زيد عبد الرحمن بن النجار من كبار أرباب الحرف بتلمسان يزاول حياكة الصوف الرفيع في درب شاكرو، وكان أغلب هذا الدرب له ولخدامه، يقصده كبار التجار من المشرق والمغرب للاقتناء منها، وكان يجني من بيعه لهذا الصوف ألف دينار في اليوم الواحد^(١٠٣)، وهو ما يفسر درجة الغني والثروة التي يتمتع بها إذ تمثل نموذجاً لكبار الحرفيين والصناع في تلمسان ومختلف مدن الدولة الزيانية، ويصف حسن الوزان حياة هؤلاء بقوله: " والصناع أناس أقوياء يعيشون في هناء ومتعة، ويحبون التمتع بالحياة".^(١٠٤)

إن هذا الوصف الدقيق الذي يعكس المستوى المعيشي والمكانة الاجتماعية المرموقة لا ينطبق في مجمله على بعض الحرفيين الصغار الذين كانوا يمارسون عملهم كأجراء لدى أرباب المهن والصنائع مقابل أجره زهيدة لا تتعدي نصف دينار، وهو ما تؤكد بعض المصادر التي وصفت أحوالهم بالضائقة والعسيرة.^(١٠٥)

ثالثاً: بعض العادات والتقاليد وأثرها في المجتمع الزياني

من عادات أهل تلمسان وسكان المغرب الأوسط في العصر الزياني، الاحتفال بالأعياد الدينية على غرار المولد النبوي، وعيد الأضحى شأنهم في ذلك شأن المجتمعات والدول الإسلامية. ويذكر الونشريسي أن الاحتفال بالمولد النبوي كان يلقي اهتماماً كبيراً من قبل ولاة الأمر وسائر طبقات المجتمع، حيث اعتاد الناس على إيقاد الشموع، والتزين بما حسن من الثياب، وركوب الدواب لإظهار الفرحة والسرور بمولده عليه السلام^(١٠٦)، على رغم معارضة عدد من الفقهاء لمسألة إيقاد الشموع في منازل العامة، ودور العبادة واعتبارها بدعة خارجة عن الشرع يجب قطعها.^(١٠٧)

ويضيف التنسي أن أبا زيان محمد بن أبي حمو (٧٩٦ . ٨٠١هـ / ١٣٩٣ . ١٣٩٩م)، كان يقيم الاحتفالات لمولد المصطفى عليه الصلاة والسلام، احتفالاً لأسلافه الكرام إلى الصباح وترفع إليه القصائد والمدائح بهذه المناسبة.^(١٠٨)

وورد في إحدى الدراسات^(١٠٩)، أن أهل تلمسان اهتموا بالاحتفال بميلاد أطفالهم، فكانوا يعدون العقيقة، وهي وليمة يذبح فيها الخرفان، وتعد فيها نوع من الحلوى اشتهر بها أهل المغرب تسمى العصيدة، ويطعم من ذلك الفقراء وأقارب المولود وأسرته، احتفالاً بقص أول خصلة من شعر الطفل في اليوم السابع لولادته.

كما كانوا يحتفلون بختان الطفل فيقيمون بهذه المناسبة مأدبة، يدعي إليها أهل والأقارب، ويشاركون بعضهم البعض فيما يسمى بالصنيع، وهي مجالس اللهو والطرب التي كان يصحبها غالباً . النفخ بالبوق والضرب على العود واحتساء المصطار (عصير العنب قبل تخمره).^(١١٠)

أما عن العادات المتبعة في الأفراح، فيذكر الوزان ما تقوم به النساء من صياح وعويل ولطم على الوجوه والأطراف إذا مات هن قريباً بقوله: " وفي آخر كل بيت تصيح النساء ويخدشن صدورهن وخدودهن حتى يسيل منها الدم بغزارة، وينتفن شعورهن نائحات مولولات، يدوم ذلك سبعة أيام تلك هي عادة العامة" (١١١)

وبعد مرور سبعة أيام على الوفاة يستأجر أهل الميت أحد القراء لتلاوة ما تيسر من القرآن على القبر، وبعد ذلك يشرعون في تقديم طعام للقراء والفقراء والأقارب للترحم على الميت وصلة الأرحام، ويسمي هذا الطعام بعشاء القبر. (١١٢)

المبحث الثاني: الأوضاع الاقتصادية

أولاً: الزراعة

أ) بعض أنواع الأراضي

١. أراضي الإقطاع: أراضي ملك للدولة، ولا يحق التصرف فيها إلا من قبل السلطان، يجيز إقطاعها لمن يشاء من خلال تفويض السلطة لشخص أو جماعة على رقعة محددة، ثم توسع المفهوم ليشمل جباية الأعشار، واستغلال الأراضي الفلاحية واستخلاص فوائد الرعي، وقبض الرسوم، مقابل هذه الامتيازات كان المستفيد من الإقطاع يتحمل مسؤوليتين: الأولى دفاعية ردعية يحارب بموجبها أعداء السلطان، والثانية جبائية يرغب بموجبها السكان على دفع ما بذمتهم للخزينة العامة. (١١٣)

ويوضح ابن خلدون استفادة عدد من القبائل بهذا النوع من الأراضي "نظام الإقطاع" بقوله: "وانبسط أيدي العرب على الضاحية وأقطعتهم الدولة حتى الأمصار وألقاب الجباية ومختص الملك.. وقاسموهم في جبايات الأمصار بالإقطاع ريفاً وصحراء وتولاً وجريداً." (١١٤)

وأول من عمل بنظام الإقطاع في دولة بني عبد الواد هو السلطان يغمراسن بن زيان (٦٣٣ - ٦٨١هـ/ ١٢٣٥ - ١٢٨٢م) مؤسس الدولة، حيث اقتطع مشايخ قبيلة سويد العامرية بلاد البطحاء وسيرات وهوارة^(١١٥)، وتبعه في ذلك التقليد بقية سلاطين بني زيان.

هذا وقد طغي نظام الإقطاع بصفة خاصة خلال عهد السلطان أبي حمو موسي الثاني (٧٦٠-٧٩١هـ/ ١٣٥٩ - ١٣٨٩م) حيث أصبحت الدولة عبارة عن إقطاعات للقبائل والأشخاص^(١١٦)، سواء أكانوا من الأسرة الحاكمة أم من أنصارها.^(١١٧)

وإذا كانت الدولة الزيانية قد وجدت في قوة القبائل وولاء شيوخها سبباً كافياً لمنحهم عدداً من الإقطاعات، فإنها انتهجت سياسة مماثلة إزاء العلماء والفقهاء بسبب نفوذهم الروحي وقوة تأثيرهم على الرعية ويتضح ذلك من خلال اهتمامها ببعض رؤساء الطوائف الصوفية ومنحهم أراضي واسعة وعيون من الماء^(١١٨)

ومن الذين استفادوا من هذا الإقطاع، فقهاء تلمسان أمثال التسنّي والعقبانيين، فالتنسي أقطعة يغمراسن (٦٣٣-٦٨١هـ/ ١٢٣٥ - ١٢٨٢م) أرضاً للانتفاع بها بعد قدومه من تنس، ثم بعد وفاته انتقلت إلى أبناء الإمام وهم من مدينة . برشك . في عهد السلطان أبي حمو موسي الأول (٧٠٨-٧١٨هـ/ ١٣٠٨ - ١٣١٨م).^(١١٩)

٢ . أراضي الظهير: ويطلق عليها كذلك اسم " المزية الجبائية والعقارية" حيث ترخص الدولة للمنتفعين استخلاص الضرائب الموظفة على السكان المستقرين لفائدتهم، وأحياناً الضرائب الموظفة على قبائل الأعراب الرحل الأضعف منهم، وأحياناً على أراضي المراعي والضيعات الزراعية.^(١٢٠)

ويعد منح أراضي الظهير " إقطاع منفعة لا إقطاع رقبة"^(١٢١) يحق الانتفاع بها وبثمارها دون تملكها وإذا أقطعت لشخص ما، وتوفي أقطعت لغيره ولا تورث عنه، فهي منفعة لصاحب الإقطاع فحسب دون ورثته، وبشأن ذلك أورد الونشريسي مسألة فقهية جاء فيها: "وسئل ابن عرفة عن

الأرض التي تقطع للأعراب وغيرهم من الناس هل تملك ملكاً تاماً أم لا؟ فأجاب: بأن إقطاعها إنما هو إقطاع انتفاع لا ملك". (١٢٢)

ويضيف قائلاً: وسئل عمن أقطعت له ثم مات وخلفه ورثته فجرد ظهيرها من إمام آخر" (١٢٣)

وتبعاً لذلك فقد كان الإقطاع يكتسي عملياً في كثير من الحالات صبغة وراثية، بل كان يتجه نحو التحول إلى ملكية تامة ومطلقة، وقد كان الفقهاء يحتجون في مناسبة ضد هذا التوجه، فحتى بعد مرور مدة طويلة على حيازة الإقطاع، كانوا يرفضون تمكين "أرباب الظهائر" من حق التصرف في أرضهم كأنها ملك خاص، كما كانوا يحجرون عليهم تحبيسها مذكرين بأنها "ملك رقبة". (١٢٣)

ويذكر الونشريسي نوعاً آخر من أراضي الظهير، يمنحها السلطان لأفراد نظير خدمات قدموها للدولة، تتميز بأنها ملكية خاصة، يجوز بيعها وتوارثها، وقد أطلق عليها اسم "الأرض القانونية". (١٢٥)

٣. أراضي الأوقاف:

هي الأراضي التي يتنازل عنها صاحبها، أو السلطان إذا كان الأمر يتعلق بأراضي الدولة فعلياً. وهو ما زال على قيد الحياة. عن حق الانتفاع بها، لفائدة الفقراء والمشاريع الخيرية، ويمكن أن يكون المنتفعين الوسطاء أشخاصاً مهما كانوا، أو وراثتهم حسب نظام محدد من طرف المحبس (١٢٦)، وقد شكل هذا النوع من الأراضي انتشاراً كبيراً في المغرب الأوسط بفعل تزايد درجة التأثير الديني في المجتمع الزياني، خاصة عندما يتعلق الأمر بعائداتها المالية التي تصرف على المرافق العامة مثل: المساجد والمدارس والزوايا. (١٢٧)

ويتكلف بإدارة وتسيير هذه الأراضي مجموعة من الموظفين، يأتي في مقدمتهم "الناظر" الذي يسهر على ضمان كراء واستغلال هذه الأراضي، ومراقبتها على الدوام، وتحصيل ثمارها وجمع أموالها.

ويؤكد هذه الوظيفة صاحب "المعيار" بقوله: "وسئل عن ناظر الأحباس هل يجب عليه تفقدها أم لا؟ فأجاب: يطوف الناظر الحبس، وشهوده، وكتابه، وقباضه على ريع الأحباس أكيد ضروري لا بد منه وهو واجب على الناظر فيها لا يحل له تركه إذا لا يتبين مقدار غلاتها ولا عامرها ولا غامرها إلا بذلك، وما ضاع كثير من الأحباس إلا بإهمال ذلك" (١٢٨)

٤ . أراضي الموات: وهي الأراضي البور التي يقطعها السلطان لمن يحييها ويزرعها لعامة المسلمين، فتصبح ملكاً له ويجوز له بيعها. (١٢٩)

وقد وردت إشارة في إحدى النوازل الفقهية تؤكد ذلك، جاء فيها: "جوابكم في مسألة رجل وجد أرضاً... من العباد مرت عليها سنون وهي دائرة لا يعلم لها مالك، وافتتحها وخدمها وغرسها منذ أزيد من خمسين عاماً، ثم باع ذلك إلى رجل آخر". (١٣٠)

ب) نظم استغلال الأراضي: يستند نظام استغلال الأراضي الزراعية والاستفادة من محصولها إلى وثيقة عقد، تبرم بين صاحب الأرض على اعتباره مالكا لها، وبين العامل عليها الذي يكون طرفاً رئيسياً في الشركة المبرمة حسب ما نصت عليه وثيقة العقد من شروط وأحكام تتصل بنظم الاستغلال وإدارة الأرض وتوزيع المحصول. (١٣١)

تشبي إحدى النوازل والفتاوى الفقهية (١٣٢) إلى بعض النظم المتعلقة باستغلال الأرض منها: المزارعة، والمغارسة، والمساقاة.

١ . المزارعة: تكون بين طرفين وفي موضع معين ولمدة زمنية محددة، على أن يتم استغلالها حسب ما ورد في وثيقة العقد المبرمة بين صاحب الأرض وبين المزارع، بعد أن قوما كراء الأرض وعمل المزارع، فيخرج رب الأرض نصف ما يئزر فيها من الحبوب، ويخرج المزارع النصف الآخر ويخلط الجميع، ويتولى المزارع تعمير الأرض: بزريته، وإجارتته، وأزواجه وآلته، وعليه حصاده وانتقاله من الأرض المذكورة، ودرسه حتى يصير حبا. (١٣٣)

ويتم توزيع المحصول حسب ما تم الاتفاق عليه في وثيقة العقد (مسألة شركة، مسألة إيجار)، فإن كانت إجارة كان لصاحب الأرض ثلاثة أرباع، ولصاحب العمل الربع، وإن كانت شركة تمت مناصفة، وإن كان القائم عليها خماساً، حصل على خمس المحصول، والأربعة الباقية لصاحب الأرض. (١٣٤)

٢- المغارسة: وهي أن يدفع المالك أرضه إلى شخص آخر، ليغرسها صنفاً من الشجر أو أصنافاً يسميها، فمتى أثرت وأطعمت كان ذلك بينهما مناصفة، وعلى العامل الغرس والحفر والحرز والنقش إلى ظهور صلاحها وبدء طبيها، ولا تجوز المغارسة في: بقل ولا زرع ولا بصل (١٣٥)، ويمنع أيضاً على صاحب الأرض من زراعة الأرض المغروسة، لأنه ضرر بالغرس إلا أن تكون هناك عادة. (١٣٦)

٣- المساقاة: تكون بين طرفين شريكين، أو بين رب الأرض وبين العامل عليها كأجير لمدة زمنية محددة وحسب نوع الزرع أو الغرس، وهي ثلاثة أصناف: صنف أصله ثابت، تنقطع ثمرته، فالمساقاة في ذلك جائزة في كل وقت ظهرت ثمرته أم لا، وصنف ثان إذا حدثت ثمرته لم يبق له أصل كالزرع والمقتاة؛ فالمساقاة في ذلك جائزة عند الضرورة، وصنف ثالث لا تجوز مساقاته إذا لم ينبت وكذلك إذا نبت لأنه لا أمد له، كالبقول، والموز، والقضب، وكل ما يحذر ويخلف. (١٣٧)

ولا يجوز حسب الإمام مالك مساقاة: ما جاز بيعه، أو جاز كراؤه، لأنه يترك في الأرض كراء معلوماً، ويرجع إلى غرز الجزء مما تنبت الأرض ويدع في الثمرة ثمناً معلوماً، ويرجع إلى المساقاة فيصير أجره على جذها ومؤنتها. (١٣٨)

أما عن مصادر السقاية في المغرب الأوسط فهي متعددة، وهو ما ذهب إليه حسن الوزان عند وصفه مدينة تلمسان بقوله: " وفي المدينة عدة سقايات" (١٣٩) وحصرها ابن حوقل من خلال وصفه لمدينة برشك في الأنهار والآبار بقوله: " ولها مياه جارية وآبار معين" (١٤٠) وحددها الونشريسي بشكل دقيق في: الأمطار، والعيون، والآبار، والأودية، والصهاريج (١٤١)

ويشير القلقشندي إلى ذلك بقوله: "وهي مدينة (تلمسان) في سفح جبل.. ماؤها مجلوب من عين على ستة أميال منها، وفي خارجها أنهار وأشجار ويستدير بقبليها، وشرقيها نهر يصب في بركة عظيمة من آثار الأول، ويسمع لوقعه خرير على مسافة، ثم يصب في نهر آخر، بعدما يمر على البساتين، ثم يصب في البحر..."^(١٤٢)

أما عن نظام الري في تلمسان، فيوصف بالتنظيم الدقيق للغاية، بحيث كان المزارعون يتعاونون فيها بينهم على سقاية الأرض على نحو بلغ الغاية في الترتيب، فقد كان بتلمسان عين ماء مشتركة بين أهلها يسقون منها بساتينهم ومزارعهم بحصص دورية، وبأوقات معلومة وهو ما توضحه هذه النازلة:

"وسئلت من قبل القاضي بتلمسان أبي زكريا يحيى بن عبد الله بن أبي البركات: سيدي رضي الله عنكم جوابكم في عين ماء مشتركة بين أناس يسقون منها جناحهم، فمنهم من حظه نهاراً، ومنهم من حظه ليلاً، ومن هم من حظه في غدوة إلى الزوال، ومنهم من حظه من الزوال إلى العصر، واستمرت العادة فيما ينيف على الخمسين عاماً، فمنهم من كان يروي أرضه نهاراً ومنهم من يرويها ليلاً، وفئة الثالثة كانت تروي من الغداة إلى الزوال، وفئة أخرى تروي من الزوال إلى العصر، واستمروا يزاولون هذا الإجراء لسنوات طويلة تنيف على الخمسية عاماً."^(١٤٣)

ج) الإنتاج الزراعي:

لقد كانت جودة الأراضي وخصوبتها^(١٤٤)، وتعدد طرق استغلالها ونظمها^(١٤٥)، وتنوع مصادر المياه وأساليب السقي^(١٤٦)، واعتناء سكان تلمسان واهتمامهم بالنشاط الزراعي^(١٤٧)، عوامل مهمة في تفسير نوعية الإنتاج وكميته في الدولة الزيانية، فمنطقة تلمسان وما جاورها من الأراضي شهدت نشاطاً مكثفاً يتفق أغلب الجغرافيين على التنويه بآثاره مع زيادة في الإنتاج.

١- الخضر والفواكه : تتوفر زراعة الخضر والفواكه في الأراضي الخصبة المجاورة للأودية

والعيون، في شكل مزارع وبساتين وجنان^(١٤٨)، حيث تشير كتب الجغرافيا إلى أنواع عدة من الخضر

منها: الجزر واللوبياء والكرنب والبصل والخيار والقثاء واللفت والبادنجان والقرع وقصب السكر، والقنبيط والخس والهلين. (١٤٩)

أما الفواكه فهي على أنواع وأذواق مختلفة مثل: العنب والتين والسفرجل والتفاح والكمثري والزعرور والخوخ والمشمش والتوت والليمون والجوز والنخيل وغيرها. (١٥٠)

وعن هذه المحاصيل يصف حسن الوزان تلمسان بقوله: " وفي المدينة عدة سقايات.. حيث الكروم المغروسة الممتازة تنتج أعناباً من كل لون، طيبة المذاق جداً، وأنواع الكرز الكثيرة التي لم أر لها مثيلاً في جهة أخرى، والتين الشديد الحلاوة، وهو اسود غليظ طويل جداً، يجفف ليؤكل في الشتاء، والخوخ والجوز واللوز والبطيخ والخيار وغيرها من الفواكه المختلفة" (١٥١)

ويشير يحيى بن خلدون إلى بعض المنتجات الزراعية التي تثمرها أرض تلمسان بقوله:

" ويوجد بخارجها.. الحقائق الغلب، بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من فواكه الرمان، والزيتون، والتين.. وتنصب إليها من أعلى جبالها أنهار من ماء غير آسن.. ويسقي بساقيها خارجها، ومغارس الشجر، ومنابت الحب" (١٥٢)

وأما تيهرت وتنس وشرشال وماوزنه ومليانه والبطحاء ووهران وغيرها من أراضي الدولة الزيانية، فكانت لا تختلف عن تلمسان، بها فواكه حسنة مختلف ألوانها" والأراضي جيدة تعطي غلة حسنة" (١٥٣)، ويصف القلقشندي فواكه تيهرت بقوله: " وبها البساتين الكثيرة المونقة والفواكه الحسنة، والسفرجل الذي ليس له طعم أو شم". (١٥٤)

ويضيف ابن حوقل ما تنتجه مدينة برشك بقوله: " ولها مياه جارية وأبار معين، وبها فواكه حسنة غريزة وسفرجل معنق، كالقرع الصغار وهو طريف وأعناب". (١٥٥)

أما الناحية الممتدة ما بين مدينة تنس والمسيلة فكانت هي الأخرى تنتج ما لذ وطاب من الخضر والفواكه والتوابل" ومن مدينة تنس إلى المسيلة قرى كثيرة عبر مراحل.. لها كروم ذوات سوان،

يزرعون عليها البصل والسعدانج والحناء والكمون، ولها كروم كثيرة ومعظمها على نحر الشلف، ومن التنس إلى الشف مرحلتان". (١٥٦)

٢. الحبوب ومحاصيل أخرى: تتم زراعة الحبوب في الأراضي الخصبة خاصة السهلة منها، كسهل تسالة، وسهل وادي الشلف، وسهل تيارات وسهل متيجة، بالإضافة إلى السهل الساحلية الأخرى كسهل تنس (الظهرة)، ووهران، وهنين، والأراضي المحيطة بتلمسان ومن أهم أنواع الحبوب: القمح، الشعير، الحنطة وغيرها. (١٥٧)

وحول نوعية إنتاج القمح وكميته يشير حسن الوزان إلى سهل تسالة المجاورة لتلمسان بقوله: "أما مدينة تسالة فتقع في سهل كبير يمتد على مسافة عشرين ميلاً، ينبت قمحاً جيداً جميل اللون غليظ الحب ويمكنه وحده أن يزود تلمسان بما تحتاجه من حبوب" وعن مدينة تنس يقول: "وأما إقليمها فينتج الكثير من القمح" ويذكر أيضاً سهل البطحاء "في سهل فسيح ينبت فيه القمح بكثرة، وكانت تحقق لملك تلمسان دخلاً يقدر بعشرين ألف مثال". (١٥٨)

أما حوض الشلف وما جاوره من الأراضي الخصبة كسهول مليانة وبرشك فنتج إلى جانب القمح، الشعير والحنطة والكتان، هذا إلى جانب المناطق الجبلية كجبل متغارة، وولهاصة وبني يزناسن مطغرة التي لا تنتج إلى الشعير. (١٥٩)

ويذكر الوزان مدينة برشك بقوله: "وتنتج البادية الجميلة من حولها كثيراً من الكتان والشعير". (١٦٠)

وإلى جانب هذه المحاصيل تشير بعض المصادر الفقهية إلى زراعة القطن والقطاني والذرة والمقاي. (١٦١) فالقطن والكتان من المحاصيل الزراعية الهامة في المغرب الأوسط خاصة في الصناعات النسيجية، مما يفسر انتشاره في مناطق عدة، وهو ما يؤكد حسن الوزان بشأن سكان مدينة ندرومة بقوله:

"وينتجون على الخصوص أقمشة القطن لأنه ينبت بكثرة في الناحية". (١٦٢)

٣ . نظام الرعي وتربية الماشية:

تشير إحدى الدراسات الحديثة^(١٦٣)، إلى أن أراضي الدولة الزيانية كانت في حقبة من حقب تاريخها مرتعاً ومرعى للحيوانات المختلفة والماشية خاصة الأغنام والأبقار والإبل والخيول والحمير، وتزاول من طرق القبائل التي توجد مضاربها ضمن محيط الدولة.

ويصف ابن خلدون الحياة الرعوية لبعض القبائل ضمن نطاق المغرب الأوسط بقوله: " ويضعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعي، فيما قرب من الرحلة، لا يتجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفار الأملس ومكاسبهم الشاة والبقر والخيول.. وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن الرعب، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة".^(١٦٤)

ومن القبائل التي اشتهرت بتربية الماشية:

قبائل بني توجين، ومغراوة خاصة في المرتفعات الجبلية، أما القبائل الناجعة فأغلب حيواناتهم الإبل، بينما انحصرت تربية الخيول في المناطق السهلية والهضاب.^(١٦٥)

وكثرت تربية الأبقار في المغرب الأوسط، حيث المراعي والأعشاب، والأراضي المستوية في الشمال خاصة في مدينة تيهرت وأراضي مطماطة، بينما اشتهرت تربية الأغنام والماعز في الهوامش الشمالية للصحراء في الشتاء، والسفوح الجنوبية في الصيف.^(١٦٦)

ويذكر ابن حوقل مواضع مختلفة من أراضي الدولة الزيانية، ارتبط اسمها بتربية الماشية، فيصف تيهرت بقوله: " وهي أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية، ويكثر عندهم العسل والسمن"، وهي إشارة إلى تربية النحل، ويشير إلى مدينة وهران وما جاورها بقوله: " وأكثر أموالهم الماشية، ولهم منها الكثير".^(١٦٧)

وينفرد الوزان بوصف دقيق للحياة الرعوية لسكان إقليم بني راشد التي لا تبعد كثيراً عن تيهرت بقوله: " يقيمون في البادية ويعيشون تحت الخيام معتنين بماشيتهم، ولهم عدد وافر من الجمال والخيول" وأما عن البطحاء التي لا تبعد كثيراً عن تلمسان، فيصف أحد الرعاة بقوله: " وتكاثر بقرة

وخيله وغنمه إلى حد أصبح هو بنفسه لا يعرف عدد رؤوس تلك الماشية.. وأن له زهاء خمسمائة من الخيل، وعشرة آلاف من الغنم، وألفين من البقر". (١٦٨)

ثانياً: بعض أنواع الصنائع والحرف

مثلت بعض الحرف والصنائع في المجتمع الزياني القاعدة الإنتاجية للمدينة، بما كان يقدمه الحرفيون من دور بارز في تنشيط الحياة الاقتصادية، وذلك باستغلال المواد الأولية وتحويلها فلاحية كانت أم معدنية إلى بضائع استهلاكية قابلة للتسويق، ومن أهم هذه الصنائع:

١. الصناعات النسيجية:

تعتمد هذه الصناعة على موارد مختلفة كالصوف، والقطن، والكتان، والحرير والجلود المدبوغة على اعتبارها مادة أولية متوفرة بشكل كبير في أراضي الدولة الزيانية، وتشمل بوجه خاص: حياكة الملابس والزراي والحنابل، وصناعة الخيم والأحذية والسروج والعمائم والأحزمة وغيرها. (١٦٩)

وقد أثنى يحيى بن خلدون على هذه الصناعة بتلمسان بقوله: " غالب تكسيبهم الفلاحة وحوك الصوف، يتغايون في عمل أثوابه الرقاق، فتلقي الكساء، والبرنوس عندهم من ثماني أواقي، والأحرام من خمس، وبذلك عرفوا في القديم والحادث، ومن لدنهم يجلب إلى الأمصار شرقاً وغرباً" (١٧٠)

ونوه الزهري بمكانة تلمسان في صناعة المنسوجات الصوفية بقوله:

" وهي دار مملكة يعمل فيها من الصوف كل شيء بديع من المحررات والأبدان وأحاريم الصوف والسفاسير والحنابل المكلكلة وغير ذلك وهذا من بديع ما خص به أهلها من جميل صنعهم.. ومنها يجلب لقيط الصوف والأسيلة لسروج الخيل إلى بلاد المغرب وبلاد الأندلس" (١٧١)

فقد كان أبو زيد عبد الرحمن بن النجار من كبار أرباب الحرف بتلمسان يزاول حياكة الصوف الرفيع في درب شاكر، وكان أغلب هذا الدرب له ولخدامه، يقصده كبار التجار من المشرق والمغرب للاقتناء منها، وكان يجني من بيعه لهذا الصوف ألف دينار في اليوم الواحد^(١٧٢)، وانفرد جورج مارسلي بوصف دقيق لحياطة السروج وتطريزها بقوله:

"إلا أن الفرسان المحتفظين بتذوق السروج الفاخرة قد يجدون بتلمسان طرازين أكفاء يقومون ببسط مشبك الزخرف المزدوج في شكل أغصان ملتفه بالسلك الذهبي أو الفضي على جلد أو قطيفة السروج والعمائم والأحزمة"^(١٧٣)، وتشير كتب التراجم إلى وجود ورشات حرفية يديرها أرباب الحرف بمساعدة مجموعة من الصبيان، يخضع من خلالها الصبي لمدة معينة حتى يتعلم الصنعة، على أن تقدم له الأجرة لا تزيد عن نصف دينار كل شهر.^(١٧٤)

٢. الصناعات الفخارية والخشبية:

ارتبطت حرفة الفخار بوجود عدد من الأفران المتخصصة بصناعة الفخار والخزف والقرميد، بمدينة تلمسان وضواحيها، خاصة بالقرب من باب العقبة، ويشير جورج مارسلي إلى تراجع هذه الحرفة عما كانت عليه من تطور وازدهار منذ زمن طويل مقارنة بحرف أخرى كالنسيج.^(١٧٥)

ومن المؤكد أن هذه الصناعة قد تأثرت بشكل كبير من خلال فئة الأندلسيين، الذين أدخلوا معهم إلى بلاد المغرب الأوسط صناعات جديدة كصناعة الزليج ذو الألوان المختلفة.^(١٧٦)

وكذا فإن عمارة المساجد وبناء القصور والبيوت في هذا العصر تركت أثراً كبيراً في تطوير الصناعات الخشبية، بما احتاجته من أسقف ونوافذ وأبواب ومنابر ومقصورات وأثاث وتحف زخرفية، وكانت السقوف الخشبية تغطي بالقصدير والأصباغ الملونة، والأبواب تغطي كلها بالنحاس الأصفر، وكانت المنابر والمقصورات تزخرف بأشكال هندسية ونباتية وتطعم حشوات المنابر بالعاج والأبنوس والصندل والعناب وأصناف الخشب العظيم^(١٧٧).

وقد برز كذلك في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، النحت على الخشب بالنسبة إلى الأثاث والخزائن والصناديق وأبواب المساجد، ومن بين الآثار الدالة على هذه المرحلة ثرية مسجد تلمسان التي تعود إلى عهد يغمراسن بن زيان (٦٣٣- ٦٨١هـ / ١٢٣٥- ١٢٨٢م)^(١٧٨)، هذا إلى جانب النحت على الجبس والزخرفة والفسيفساء الفنية التي وجدت على سطوح الحجرات المبلطة بالزليج الملون، وهو ما ذهب إليه الحسن الوزان في وصفه لمدينة هنين التي لا يفصلها عن تلمسان إلا أربعة عشر ميلاً بقوله: " ودورهم في غاية الجمال والزخرفة أرضها مبلطة بالزليج الملون، وسفوح الحجرات مزينة بنفس الزليج، والجدران مكسوة كلها بالفسيفساء الفنية." ^(١٧٩)

وتعد المدرسة التاشفينية آية في الزخرفة والجمال، إذا يصفها جورج مارسي بقوله: " ولعب التلبس الخزفي في الزخرفة دوراً هاماً.. فجهزت بالخزف محيطات الأبواب ورصف القاعات، وتقدمت المصلي فسيفساء من المرمر تأطرت بزخرفة ضفيرية نباتية رقيقة" ^(١٨٠).

٣ . الصناعة المعدنية:

هي من بين الصناعات التي أخذت إهتماماً خاصاً من قبل السلطة الزيانية لارتباطها بالحياة المدنية من جهة والحياة العسكرية من جهة أخرى، ويعود السبب في تطورها إلى وفرة الموارد الأولية في محيط الدولة وقربها من مناجم الذهب والزنك والحديد بشكل خاص. ^(١٨١)

شملت هذه الصناعة الأسلحة التقليدية كالسيوف، والرماح، والدرق، والمجانيق، والعردات، والآلات المختلفة التي تستعمل في عمليات الحصار. ^(١٨٢)

وقد استعملت في مواضع مختلفة، كمصاريح لأبواب ومقابض ومطارق لها، إلى جانب بعض الأدوات البسيطة كالقؤوس والمحاريث والشبابيك وغيرها. ^(١٨٣)

وارتبطت كذلك بسك العملة وصناعة النقود من دنانير ودراهم، بلغ عددها اثنان وثلاثون ديناراً ذهبياً في غاية الجودة والإتقان، بما تحمله من أشكال هندسية، وأقوال مأثورة لأسماء الملوك

والسلاطين، وآيات من القرآن الكريم، ومعلومات أخرى تفيد أنها ضربت بمدينة تلمسان، مما يؤكد وجود دار للسكة. (١٨٤)

ثالثاً: النظام التجاري

أ) تنظيم الأسواق وإدارتها

إن الحديث عن الحركة التجارية في الدولة الزيانية يرتبط أساساً بوضعية الأسواق وتنظيماتها في هذا العهد، حيث تمثل الأسواق مركزاً للنشاط التجاري بصورة ومراحل مختلفة.

فالأسواق هي مرآة عاكسة لحياة المدينة الاقتصادية وعنوان نشاطها التجاري والصناعي بل والاجتماعي أيضاً، فمنذ إنشاء المدن رتبت أسواقها، ودعمت ببعض المنشآت وأصبح لها تنظيمات وقواعد معينة خاصة بعدما تولت الدولة الإشراف عليها. (١٨٥)

ويتضح من خلال ذلك، أن لكل سوق وقت محدد لانعقاده ونوع معين من السلع التي يختص بها، حيث تشير بعض الدراسات (١٨٦)، إلى عدد من الأسواق الأسبوعية والموسمية في البوادي والمدن:

كسوق سيدي بوجمعة الذي يعقد كل يوم أربعاء بمدينة تلمسان، وسوق بني راشد الذي يعقد كل خميس ويبيع فيه عدد وافر من الماشية والحبوب والزيت والعسل، وكثير من المنسوجات وأشياء أخرى أقل قيمة، كالحبال والسروج والأعنة وحاجيات الخيل.

كما وجد عدد آخر من الأسواق الحرفية مثل: سوق الخرازين، وسوق النحاسيين، وسوق العطارين، وسوق الغزل والنسيج، وسوق الخضر والفواكه، وسوق اللحوم. (١٨٧)

وتشير إحدى الأبحاث (١٨٨)، إلى رواج بعض الأسواق المتخصصة في بيع العبيد السود، في مدينة تلمسان لفئة التجار الأجانب خاصة الكاتالونيين والبنادقة والمبروقيين، إذا يشكلون بضاعة مريحة لتعدد مجالات استخدامهم.

ويتحكم في إدارة هذه الأسواق وتسييرها، فئات التجار على اختلاف أصنافهم ورؤوس أموالهم إلى جانب فئات أخرى تتكفل بنقل السلع وحملها، وآخرون يحددون الأسعار كوسطاء بين البائع والمشتري، لتنظيم حركة نقل السلع والبضائع من مكان إلى آخر وجد الحمالون، الذين يزاولون مهامهم بترخيص من عامل المدينة، ولهم أمين يفصل في نزاعاتهم، كما وجد الدالون (السماسرة) وهم عبارة عن وسطاء بين التجار فيما يتعاونونه أو يبيعونه إلى المشتري، حيث يحمل الدالون السلعة من دكان إلى آخر مبتغين فيها أعلى الأثمان.^(١٨٩)

وتفيد إحدى النوازل الفقهية ما كان يسببه الدالون من أضرار جسيمة للباعة والتجار، لأن المشتري كان يقوم " بتقليب السلعة في حوانيتهم قاصداً الإشتراء، ويرى السلعة في المنادة أقل ثمناً من التي في الحوانيت.. فيترك الإشتراء منهم ويميل إلى سلعة المنادة لدى الدالين، وينتج عن ذلك عدم تسويق سلعهم إلا في آخر النهار، مما يضر بمصالحهم، لأن التاجر أو البائع يسعى إلى بيع سلعته في أول النهار ليشتري بثمنها سلعاً غيرها." ^(١٩٠)

(ب) مراقبة الأسواق

تعكس أهمية الرقابة المفروضة على الأسواق في الدولة الزيانية قضايا متعددة ذات صلة بحياة المجتمع وتقاليده ضماناً للسير الحسن للنشاط التجاري، ورغبة لوضع حد للسلوكيات الدنيئة الصادرة عن بعض الباعة والتجار ومن ذلك:

مراقبة المكاييل والموازين التي كان يستخدمها التجار في تعاملاتهم اليومية لوضع حد لطرق الغش والتدليس في بيع السلع وشرائها، وتذكر بعض المصادر عدداً من وحدات الكيل التي يستعملها أهل تلمسان ومدن المغرب الأوسط في تعاملاتهم منها: الصاع وهو ما يعادل أربعة أمداد نبوية، مع العلم أن الصاع الشرعي يساوي أربع حفنات ^(١٩١)، أما الوسق ويسمي الصفحة فيعادل ستون صاعاً بالصاع النبوي بإجماع العلماء.

بصاع النبي - صلي الله عليه وسلم - وهو ما يعادل حفنة من الحبوب بكلتا اليدين مجتمعتين من ذوي يدين متوسطتين بين الصغر والكبر^(١٩٢)، أما وحدة الوزن الشائعة فكانت الرطل وكل رطل يساوي ستة عشر أوقية، بينما حددت وحدة الأوزان الكبيرة بالقنطار، في حين كانت وحدة وزن الذهب هي المثلقال^(١٩٣).

ويذكر الونشريسي أن من الباعة والتجار من كان يلجأ إلى الغش والتحايل، ومن ثمة يتعرض للعقوبة من جانب المحتسب أو صاحب السوق، ومن أمثلة الغش في الأسواق: بيع الخبز ناقص الوزن، وخلط العسل الجيد بالرديء والزيت القديم بالجديد، ومنج اللبن بالماء^(١٩٤).

ويضيف لنا لعقباي عرضاً لسلوكيات الجزائريين بتلمسان بقوله: "قلت: وكذا تقررت ببلدنا تلمسان أن ما يبيعه الجزار من اللحم يدخل في وزنه شيئاً من الكرش والمصران على قدر شدة الثمن وقتله"^(١٩٥)، ومن الباعة من يخلط القمح الجيد بالرديء ويبيعه، ناهيك عن الغش في الخبز ومبيعات أخرى^(١٩٦).

ومن أجل تفعيل الرقابة علي الأسواق وتأمينها، أسند هذا الأمر لعدد من الأمناء ومحتسي الأسواق وقد اشترط في اختيارهم لهذا المنصب جملة من الشروط حددها محمد بن أحمد بن عبدون التجيبي بقوله: "ويجب أن يكون المحتسب رجلاً عفيفاً، خيراً، ورعاً، عالماً، غنياً، نبيلاً، عارفاً بالأمور، محنكاً، فطناً، لايميل ولا يرتشي، فتسقط هيئته وسيتخف به ولا يعبأ به ويتوبخ معه المقدم له"^(١٩٧).

ويبدو أن حكام الدولة الزيانية لم يتقيدوا بهذه الشروط في أواخر عهدهم، وأصبحوا يعهدون بها لأناس عاديين لا تتوفر فيهم الكفاءة اللازمة لممارسة هذه المهنة، إذا تكشف كتب النوازل المعاصرة لذلك عن انتشار الغش في الأسواق والتلاعب بالمكاييل والموازين، وبالسلع المعروضة في السوق مقابل غض البصر من قبل ولاة الأسواق وحصولهم على رشاوى ومنافع مادية من طرف التجار وأصحاب الصنائع^(١٩٨).

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بسبب عجزهم عن محاربة ظاهرة اللصوصية التي كانت منتشرة بكثرة داخل الأسواق مستهدفة بذلك فئة التجار، ورواد الأسواق (١٩٩)

(ج) نظام التسعير في الأسواق: شكلت ظاهرة التسعير في أسواق الدولة الزيانية جدلاً فقهيّاً بين مؤيد ورافض للفكرة، إذا تشير بعض النوازل الفقهية إلى حرمة سياسة التسعير، لأنه مظلمة في حق التجار والباعة في الأسواق سيما في أوقات الغلاء لأن ذلك مقدر من الله ولا دخل للإنسان فيه. (٢٠٠)

في حين رأي بعض الفقهاء أن التسعير واجب، خاصة إذا تعمد التجار سياسة الغلاء في أوقات الشدة بإخراج ما عندهم من البضائع المحتكرة ومضاعفة أثمانها، فإنهم يجبرون على الحط من السعر والالتحاق بأسعار حتى لا يضر ذلك بعامّة الناس. (٢٠١)

ومن بين الذين كانوا يحثون على العمل بنظام التسعير في أسواق المغرب الأوسط العالم والفقهاء: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني التلمساني بقوله: "قلت كان سيدنا وشيخنا الجد الأقرب يقول: يتعين أن يكون التسعير على أهل الأسواق في هذا الزمن متفقاً عليه وتفقدتهم في كل لحظة فضلاً عن كل يوم لازم بما دانوا به من جميع المحضورات في البيع والابتياح، ومن أخبث ضرورهم وأشنع مرتكبات محذورهم أن الجالب إن أدركه سبب التعذر ولو من وابل مطر أو شدة وحل فإنهم يعدون ذلك عذراً لخلاء السوق من المطعومات وغيرها، إظهاراً منهم لفراغ ما بأيديهم من ذلك لتعذر جلب الجالبين ومخازنهم به ملأى وما ذلك إلا من ترصدهما الحطيطة في السعر لا من إخلائهم الأسواق، فإذا حط لهم منه أوقية أخرجوا محتزنهم وباعوا منه الكثير مبادرة على إتيان المجلوب فيرخص ما بأيديهم." (٢٠٢)

ويتضح من النص أن العمل بنظام التسعير كان سرياً في تلمسان ومدن المغرب الأوسط في (٠٨ - ٠٩ هـ / ١٤ - ١٥م) حتى لا يتجاوز التجار حدودهم ويترصّدون الظروف المناسبة للمضاربة والمغالة.

وبما أن قيمة الأسعار مسألة نسبية قد تزيد أو تنقص، نظراً للتغيرات المفاجئة والظروف المحيطة، فقد تأكدت ظاهرة الغلاء في أسعار المواد الغذائية سيما في أوقات المجاعة التي اجتاحت تلمسان أكثر من مرة، وكان من بينها المجاعة التي حلت بها ما بين (٦٩٨ - ٧٠٧هـ / ١٢٩٩-١٣٠٧م)، نتيجة الحصار المريني حيث نفذت الأقوات وفرغت المخازن من الطعام وارتفعت الأسعار. (٢٠٣)

ويقدم لنا ابن خلدون وصفاً دقيقاً لهذا الوضع بقوله: " وغلّت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجوز حدود العوائد، وعجز وجددهم عنه، فكان ثمن مكيال القمح الذي يسمونه البرشالة ويتبايعون به، مقداراً إثنا عشر رطلاً ونصف مثقالين ونصفاً من الذهب العين، وثمان الشخص الواحد من البقر ستين مثقالاً، ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصفاً، وأثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمير بثمان المثقال، ومن الخيل بعشرة دراهم صغار من سكتهم.. والرطل من الجلد البقري ميتة أو مذكي بثلاثين درهماً، وهر الدواجن بمثقال ونصف.. والدجاجة بثلاثين درهماً، والبيض الواحدة بستة دراهم والعصافير كذلك، والأوقية من الزيت بإثني عشر درهماً، ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين ومن الفول بمثلها، ومن الملح بعشرة، ومن الحطب كذلك، والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال، ومن الخس بعشرين درهماً ومن اللفت بخمسة عشر درهماً، والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهماً، والخيال بثلاثة أثمان الدينار والبطيخ بثلاثين درهماً، والحبة من التين والإجاص بدرهمين، واستهلك الناس أموالهم وموجودهم، وضائق أحوالهم." (٢٠٤)

ويضيف حسن الوزان في وصفه لهذه المجاعة بقوله: " ودام الحصار سبع سنوات واستفحل الغلاء إلى أن بلغ ثمن كيلو روجيو من القمح ثلاثين مثقالاً، وسكوروزو من الملح ثلاثة مثاقيل، ورطل من اللحم ربع مثقال، فلم يطق السكان تحمل مثل هذه المجاعة." (٢٠٥)

وللتخفيف من حدة الغلاء في الغذاء خاصة أيام المحن والشدائد، منع الفقهاء والقضاة احتكار السلع من قبل التجار، وقاموا ببحثهم على إخراج القمح والشعير وسائر الأطعمة المدخرة وبيعها في الأسواق لحاجة الناس إليها بسعر معقول، وقد شددوا العقاب على بعضهم إذا ما تبين

امتناعهم عن إخراج سلعهم لبيعها، وإن لم يفعلوا تخرج بضاعتهم وتباع قصراً ويعطي لهم رؤوس أموالهم والفائدة تفرق على الضعفاء تأدياً لهم، وإن لم ينتهوا عن ذلك كان الضرب والسجن لهم، وقد شددوا النكير على متلقي السلع في الفنادق، وألزمهم بإنزائها إلى الأسواق ليدركها الضعيف والقوى^(٢٠٦)، فضلاً عن ذلك فقد أجاز فقهاء المغرب الأوسط التسعير على التجار خصوصاً إذا تجاوز هؤلاء حدودهم في البيع، وكان الغلاء متفاحشاً^(٢٠٧)، ويتحكم في غلاء الأسعار أيضاً في غير أوقات المجاعة وظاهرة الاحتكار، قانون العرض والطلب، فإذا كانت السلعة نادرة الوجود تعتمد التجار تخزينها حتى يكثر الطلب عليها وترتفع أثمانها في الأسواق^(٢٠٨)، كما أن التجار الذين يحتكرون الزرع يستغلون هذه الظرف للزيادة في أسعار القمح والشعير، أو يشترونه مباشرة من الدور والفنادق قبل نزوله إلى الأسواق قصد التحكم في تسعيره^(٢٠٩)، لذلك نهي الفقهاء عن هذا السلوك، ومنع الحناتين من شرائه في الدور أوقات الغلاء، لأنه يدخل في باب المضرة بالأسواق، ومثلهم في ذلك مثل الطحانين الذين يشترون القمح في الدور ويطحنونه ويبيعونه دقيماً للناس بسعر مرتفع، لأنهم يحتسبون في ذلك جهودهم في الطحن.^(٢١٠)

أما في الأوقات العادية فتشير إحدى الدراسات إلى دور الدلال في تحديد أسعار البضائع والسلع لاتصاله بأصحاب المهن والصنائع من جهة، ونظرفته حول سعر المادة المعروضة في الأسواق خاصة إذا تعلق الأمر بمادتي الجلود والمواد المختلفة المستعملة في الدبغ.^(٢١١)

وفي بعض الحالات لا يقتصر تحديد الأسعار على المحتسب فقط، بل يختار التجار من له معرفة بأحوال السوق، وخبرة في تمييز الجيد من الرديء فيحدد لهم الأسعار ويلتزمون بها، ولو كان ذلك مؤقتاً.^(٢١٢)

(د) التجارة الخارجية للمغرب الأوسط

كان للاستقرار السياسي الذي شهده المغرب الأوسط في العصر الزياني أثره في ازدهار حركة التجارة وتنشيطها حيث شهدت أسواقه نشاطاً متميزاً في البيع والشراء، وذلك بتشجيع كبار التجار وصغارهم على المشاركة في إقامة الأسواق الأسبوعية وتفعيلها في البوادي والمدن. (٢١٣)

ويتحكم في تنشيط هذه الأسواق وتفعيلها، فئات التجار على اختلاف أصنافهم ورؤوس أموالهم، ويمكن أن نميز بين ثلاثة أصناف من التجار:

تجار صغار يزاولون تجارتهم بمفردهم، وأغلب هؤلاء يكونون إما مستأجرين للدكاكين والمتاجر، أو متجولين بين الشوارع والأزقة، لا تزيد قيمة بضاعتهم عن مائتي دينار (٢١٤)، وتجار يتنقلون بين المدن وأسواقها، يشاركون التجار الأجانب في البيع والشراء، ويوظفون ما بين مائتي دينار وخمسمائة، وتجار كبار يقومون برحلات نحو السودان ودول أوروبا ويحتكرون عدداً من السلع والبضائع. (٢١٥)

وتنفرد الفئة الثالثة عن غيرها بتنشيطها للتجارة الخارجية، إذا أصبحت مدن المغرب الأوسط مقصداً للقوافل والتجار من الأقطار المختلفة خاصة القادمة من أوروبا وغيرها من البلاد المسيحية (٢١٦)، وقد لعبت الموانئ التجارية دوراً أساسياً في تفعيل المبادلات التجارية عن طريق البحر الأبيض المتوسط. (٢١٧)

لقد كان التجار المسيحيون القادمون من أوروبا يتمتعون بالأمن والحماية أثناء إقامتهم في موانئ المغرب الأوسط، أو أثناء رحلاتهم البحرية متجهين نحو هذه المناطق، وزيادة على ذلك فقد كانوا أحراراً في بيع سلعهم إما نقداً أو مقايضة على أن يلتزموا بواجبات مقابل هذه الضمانات منها الرقابة الدائمة على السلع والبضائع الواردة إلى أسواق المغرب الأوسط، وعدم الاحتكار التجاري لسلعة معينة، إلى جانب التقيد ببعض المحظورات المتعلقة بنوع البضائع المتبادلة، ودفعهم للضرائب المفروضة على سلعهم للسلطة الحاكمة في تلمسان. (٢١٨)

وتذكر كتب الجغرافيا والرحلات، عدداً من الموانئ التي قامت بدور فاعل في الحركة التجارية، ومن هذه الموانئ ميناء تنس فهو من أكبر الموانئ التي يتعدى إليها الأندلسيون بمراكبهم ويقصدونها بتاجرهم^(٢١٩)، أما المرسى الكبير الذي لا يبعد عن وهران سوى بضعة أميال، فهو من أشهر موانئ المغرب الأوسط، ترسو فيه بسهولة مئات المراكب والسفن المحملة بالبضائع والقادمة من أوروبا.^(٢٢٠) كما كان لميناء مستغانم رغم صغر حجمه، دور هام في استقبال منتجات أوروبا لتغطية الاحتياجات الاستهلاكية للسكان، رغم أن أصحاب السفن لا يحققون أرباحاً مهمة لشدة فقر السكان.^(٢٢١)

وفي مقابل ذلك عرفت مدن المغرب الأوسط على غرار مدينة تلمسان حركة تجارية نشيطة مع بلاد السودان^(٢٢٢)، فبرزت في المجتمع التلمساني عائلات عدة مارست النشاط التجاري، واشتهرت بالغني ويسر الحال أهمها: عائلة المقرري التي اشتهرت بتجارها الواسعة للذهب، وامتلاكها لعدد من الوكالات التجارية في الواحات الصحراوية^(٢٢٣)، إلى جانب عائلة النجار التي اشتهرت بجياكة الصوف والتجارة فيه مع البلدان المختلفة مشرقاً ومغرباً، فضلاً عن عائلة المرازقة والعقباني وغيرها من البيوتات التي جمعت بين العلم والتجارة في آن واحد.^(٢٢٤)

لقد كان هؤلاء التجار يزاولون التجارة بأنفسهم، أو بوساطة مواليتهم وعبيدهم وفي بعض الحالات لجأ هؤلاء إلى استئجار وكلاء ينوبون عنهم في عملياتهم التجارية، سواء أفي السودان أم بلاد المشرق أم دول أوروبا، ومن الوكلاء من كان يختص بتاجر واحد، وبعضهم منهم بعدد من التجار حيث يستقبلون سلعتهم، وينقلونها بعد ذلك إلى المدن الداخلية.^(٢٢٥)

لقد حرص هؤلاء التجار على تأمين مدن المغرب الأوسط تجارياً، وتغطية احتياجات سكانها من البضائع والمؤن، فيصفهم مارمول بأنهم " أناس طيبون أوفياء في تجارتهم، معتنزون بالنظم والحضارة وحسن التدبير، مهذبون مع الأجانب، وأهم تجارتهم في غينينا حيث يحملون بضائعهم كل سنة

ويأتون منها بالتبر والعنبر والمسك وسنور الزباد ورقيق السود وأشياء أخرى من بضائع البلد، ويتجرون بالتبادل محققين كثيراً من الربح حتى لا تكفي رحلتان أو ثلاث ليستغني التجار." (٢٢٦).

ويضيف حسن الوزان قائلاً: هم "أناس منصفون مخلصون جداً وأمناء في تجارتهم، يحرصون على أن تكون مدينتهم مزودة بالمؤن على أحسن وجه، أهم أسفارهم التجارية هو الذي يقومون به إلى بلاد السودان ، وهم وافروا الغني أملاكاً ونقوداً." (٢٢٧)

الخاتمة

وكتناجج نهائية لموضوع بحثنا المتواضع، يتضح أن التنوع الاجتماعي في التركيبة البشرية للمجتمع الزياني قد أضفي نوعاً من الثراء السوسولوجي على وفق معايير محددة، إلا أنه أخفي في الوقت نفسه مسألة التفاوت الطبقي، وتركز الثروة والجاه لدى فئة خاصة دون أخرى، وفتح المجال لانتشار بعض مظاهر الفساد والانحلال الخلقي، مما أحدث شرخاً واضحاً انعكست آثاره سلباً على وحده المجتمع وأدائه المتكامل سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، وحمل في طيته تدمير الرعية من السلطة في المغرب الأوسط.

ومما ميز البنية الاقتصادية للدولة الزيانية، تلك الإمكانيات المتنوعة التي شكلت دعائم قوية للقطاعات المنتجة التي شملت الزراعة والصناعة وسائر الأنشطة التجارية الأخرى، وكشفت هذه الإمكانيات عن حيوية الموقع، وفرة مصادر المياه، وجودة التربة، وتنوع المناخ، وبعض النظم المحكمة المتعلقة بكيفية استغلال الأرض الزراعية (مزارع، مغارسة، مساقاة) وطريقة سقيها على وفق ما تقتضيه الشريعة الإسلامية وما تمليه عادات المجتمع التلمساني وتقاليده، إلى جانب التنظيم الجيد لظاهرة الرعي وتربية الماشية، كمصدر من مصادر الثروة.

كما شهد القطاع الصناعي ازدهاراً كبيراً، بسبب الاهتمام المتزايد لسلطين الدولة، ووفرة المواد الخام وتنوعها، وما اكتسبه الصناع من خبرات إضافية بفضل الهجرة الأندلسية إلى مدن المغرب، حيث كان ذلك عاملاً مشجعاً على وفرة الإنتاج وتنوعه، وشكل قاعدة جديدة لبداية ترويجية وتسويقه.

ونظراً لخصوصية الأوضاع السياسية والأمنية التي سادت بلاد المغرب، فقد حرص سلاطين الدولة من بني زيان على توفير الأمن والاستقرار، وتأمين طرق النقل والمواصلات والضرب على أيدي كل من تسول له نفسه الاعتداء على الأموال والقوافل، من القبائل المعارضة للسلطة وقطاع

الطرق، فاستحدثوا تنظيمات جديدة (الرتب، الغرباء) وفتحوا المجال لإقامة علاقات تجارية متنوعة بين الشمال والجنوب وداخل مدن الدولة.

وإلى جانب العناية الخاصة بالتجارة الخارجية فقد توفرت للنشاط التجاري الأسواق الداخلية، التي حظيت بعناية خاصة نم قبل السلطة الحاكمة في حاضرة الدولة بيعاً وشراءً، وذلك بتنظيمها وحسن إدارتها، ومن خلال توزيع الأسواق حسب طبيعة نشاطها، وإقامة الفنادق وتحديد خدماتها للتجار والغرباء، مع تفعيل دور المحتسب، وتحديد نظام التسعير لوضع حد لكل أشكال الغش والتدليس، والمضاربة في السلع والأسعار.

الهوامش:

- (١) محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٥/٣٥٨.
- (٢) عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م)، تاريخ ابن خلدون، المسمي كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، لبنان، ٢٠٠٠، ٧/٣٠٣.
- (٣) يحيى بو عزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٩، ١/٢١٠.
- (٤) بن خلدون، كتاب العبر، م.س، ٧/١١.
- (٥) زناته طبقتان، الطبقة الأولى منهم مغراوة التي سيطرت على فاس، وأوروبا الصنهاجية، وبنو يفرن ملوك سلا، وزناته الطبقة الثانية هم بنو مرين وبنو وطاس وبنو عبد الواد، أنظر: ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية، تقديم وتحقيق وتعليق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، ط ١، ٢٠٠١ / ١٣.
- (٦) ابن خلدون، كتاب العبر، م.س، ٧/٣.
- (٧) ابن الأحمر، م.س / ٥٠، شاوش، م.س / ٣٥٨.
- (٨) ابن خلدون، كتاب العبر، م.س، ٧/١١٦.
- (٩) ابن خلدون، كتاب العبر، م.س، ٧/٢٠٦.
- (١٠) ابن خلدون، كتاب العبر، م.س، ٧/٢٠٧.
- (١١) ابن الأحمر، م.س / ١٠ - ١٣.
- (١٢) فيلاي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)، فوم للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٢، ٢/٣٥٩.

(١٣) شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١/١٧١.

(١٤) يصف العديد من المستشرقين من ذوي النزعة الاستعمارية الهجرة الهلالية بالحركة الهمجية المسببة للدمار والخراب الذي لحق بالبنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية لبلاد المغرب، ويحملون العرب المسؤولية الكاملة في اضمحلال الحضارة الغربية، ونشر الفوضى وإدخال البداوة واحتلال أراضي البربر وضمها عنوة، أنظر:

- Georges Marcais, La Berberie musulmane et l'orient au Moyen Age, Casablanca. Editions Afrique Orient. 1991, p193.
- Emil Felix Gautler, L'islamisation de l'Afrique du Nord, les siecles obscurs du Maghreb, Paris, 1927, P 389.

(١٥) مبارك بن محمد المليي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد المليي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت، ١٧٨ / ٤٦٢ / ٢. أحمد جمال طه، الحياة الاجتماعية في المغرب الأقصى في العصر الإسلامي، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٤ / ٦٢.

(١٦) بنو هلال يعود نسبهم إلى قيس ابن عيلان من العدنانية، فهم بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن أبي بكر بن هوزان، ولهم بطون كثيرة منها مرداس، بنو عامر، بنو سعيد، بنو سليم.. أنظر: عمر رضا كحالة، معجم القبائل القديمة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨، ١٢٢١/٢.

(١٧) الإقطاع يعني لغة وعرفاً، تفويض السلطة لشخص أو لجماعة على رقعة محددة، ثم توسع المفهوم ليشمل جباية الأعشار، واستغلال الأراضي الفلاحية واستخلاص فوائد الرعي، وقبض الرسوم، مقابل هذه الامتيازات كان المستفيد من الإقطاع يتحمل مسؤوليتين الأولى دفاعية ردعية يحارب بموجبها أعداء السلطان والثانية جبائية برغم بموجبها السكان على دفع ما بذمتهم للخزينة العامة، أنظر: العروي

عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، ط٢، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ٢٠٠٠، ٢١١.

(١٨) ضيف أبو مصطفى أحمد، أثر القبائل العربية في الحياة الاجتماعية المغربية (خلال عصري الموحدين وبني مرين)، مطبعة دار النشر المغربية، ط١، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٢/٢١٨.

(١٩) قبائل المعقل يزعم أن نسبهم لأهل البيت وبالضبط إلى جعفر بن أبي طالب، وذلك غير صحيح حسب ابن خلدون، والصحيح أنهم من عرب اليمن والمعقل هو: ربيعة بن كعب بن ربيعة بن الحرث، وهو من بطون مذحج اليمنيين وتنقسم المعقل إلى ثلاثة فروع: بنود عبید الله، ذوي منصور، ذوي حسان، أنظر: ابن خلدون، كتاب العبر، م.س، ٦/ ٧٨ - ٧٩.

(٢٠) ابن خلدون، كتاب العبر، م.س، ٦/ ٧٧.

(٢١) العروي، م.س، ٢/ ٢١٢.

(٢٢) بوزباني الدراجي، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٣ / ٢٠٠ - ٢٠٣.

(٢٣) ابن خلدون، كتاب العبر، م.س، ٦/ ٥٦.

(٢٤) بوزياني، م.س / ٢٠٤.

(٢٥) ابن خلدون، كتاب العبر، م.س ٦/ ٧١.

(٢٦) مجاورون بني عامر بنو زغبة من سلطان بن عبد الواد، ومواطنهم ما بين تلمسان إلى وحدة إل مصب واد ملوية في البحر ومنبعث وادي صامن القبلة، وبينهم وبين بن عامر فتن وحروب، أنظر: ابن خلدون، كتاب العبر، م.س، ٦/ ٨٠.

(٢٧) ابن الأحرر، م.س / ٢٤، ابن خلدون، كتاب العبر، م.س، ٦/ ٨٠ - ٨٢.

(٢٨) عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط٢، بيروت، ١٩٦١، ١١/ ١٧٦-١٧٨.

- (٢٩) العروي، م.س، ٢ / ٢١٤ - ٢١٥.
- (٣٠) عز الدين أحمد موسي، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣ / ٨٥.
- (٣١) الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، ط٧، الجزائر، ١٩٩٤، ٢ / ١٦٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الرابع (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين)، مكتبة الخانجي، ط١، القاهرة، ١٩٩٧ / ٢١٧ - ٢٢٦، روبر برونشفيك، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م، ترجمة حمادي الساحلي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨، ١ / ٤٣٣.
- (٣٢) عنان، م.س، ٣١١.
- (٣٣) مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بن نصر، ضبطه وعلق عليه ألفريد البستاني، مكتبة الثقافة الدينية، ط٢، القاهرة، ٢٠٠٢ / ٤٨.
- (٣٤) جورج مارسلي، تلمسان، ترجمة سعيد دحماني، دار التل للنشر، الجزائر، ٢٠٠٤ / ٨٦، محمد بن رمضان شاوش، م.س / ٤٠٢، حاجيات، م.س، ٣ / ٤٦٤، بوزياني، م.س / ١٢٥.
- (٣٥) أنظر ترجمته في : ابن مريم أبو عبد الله محمد بن أحمد (كان حيا سنة ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، اعتني بمراجعته محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، ١٩٠٨ / ٢١٤.
- (٣٦) الجيلالي، م.س / ١٦٧.
- (٣٧) بوزياني، م.س / ١٢٥.
- (٣٨) برونشفيك، م.س، ٢ / ١٥٩ - ١٦٠.
- (٣٩) من بين علماء الأندلس الوافدين على المغرب الأوسط: القاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الشهير بابن الأزرق الغرناطي، الشاعر والأديب أبو عبد الله

محمد بن جابر الوادي أشي، العالم أبو الحسن علي بن محمد الشهير بالقلصادي،
العالم أبو عبد الله محمد إبراهيم بن أحمد الآبلي، الكاتب أبو بكر محمد بن عبد
الله بن خطاب المرسي، القاضي أبو الحسن محمد بن غلبون المرسي.. الخ. أنظر:
الطمار، م. س، ١ / ٢١٩ - ٢٢٠، الجيلاني، م. س / ١٦٧، ١٦٨، شاوش، م.
س / ٤٠٢ - ٤٠٣.

(٤٠) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ط ١، بيروت،
١٩٩٨، ١ / ٤٧.

(٤١) برونشفيك، م. س، ٢ / ١٦٠.

(٤٢) أنظر: ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في المدة الحديثة
والمعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٨، ٢ / ٢٨٣.

Richard Ayoun Bernard Cohen et, les juifs d'Algerie 2000 ans
d'histoire, Paris, 1982, p27 – 35.

(٤٣) محمد شحاته ريه، م. س / ٢٦ - ٣٤.

(٤٤) برونشفيك، م. س، ١ / ٤٣٣، مارسي، م. س / ١٠٠.

(٤٥) بوروبية وآخرون، م. س، ٣ / ٤٩٠، مارسي، م. س. ص. ن.

(٤٦) شاوش، م. س / ٣٦٤ - ٣٦٥.

(٤٧) الونشريسي أبو العباس (ت ٩١٤هـ، ١٥٠٨م)، المعيار المعرب والجامع المغرب
عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف
محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١، ٢ / ٢١٧ - ٢١٩.

(٤٨) الونشريسي، المعيار المعرب، م. ن، ٢ / ٢٥٣.

(٤٩) سعد الله فوزي، يهود الجزائر، هؤلاء المجهولون، دار قرطبة، المحمدية - الجزائر،
ط ٢، ٢٠٠٥، ١ / ١٠٧.

- (٥٠) محمد بن أحمد ابن شقرون، مظاهر الثقافة المغربية، دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب، ١٩٨٥ / ٤٠.
- (٥١) ابن شقرون، م. ن / ٤٢.
- (٥٢) سعد الله فوزي، م.س / ١٠٨ - ١١٩.
- (٥٣) سعد الله فوزي، م. ن / ١١٣.
- (٥٤) ابن خلدون، المقدمة، م. س، ١ / ٢٩٤ - ٣٠٠.
- (٥٥) بورويبة وآخرون، م. س / ٤٦٣.
- (٥٦) أبو حمو موسي العبد الوادي (ت ٧٩١هـ / ١٣٨٨م) واسطة السلوك في سياسة الملوك، مطبعة الدولة، تونس، ١٨٦٢ / ٨١.
- (٥٧) بورويبة وآخرون، م. س، ص. ن.
- (٥٨) مارسى، م.س / ٩١ - ٩٢، شاوش، م. س / ٤٦٦ - ٤٦٧.
- (٥٩) أبو حمو موسي، م. س / ٨١ - ٨٥.
- (٦٠) بورويبة وآخرون، م.س / ٤٦٧.
- (٦١) أبو زكرياء يحيى بن محمد ابن خلدون (ت ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م)، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق ألفريد بال، الغوثي أبو علي، مطبعة فونطانة، الجزائر، ١٩٠٣، ١ / ١١١.
- (٦٢) يحيى بن خلدون، م.ن / ٦٢.
- (٦٣) بورويبة وآخرون، م. س / ٤٦٨، بوزياني، م. س / ١١٩.
- (٦٤) يحيى بن خلدون، م. س / ١٢٧.
- (٦٥) يحيى بن خلدون، م.ن / ٥٩ - ١٩٣، بورويبة وآخرون، م. س / ٤٦٨.
- (٦٦) أبو حمو موسي، م. س / ٦١.

- (٦٧) الونشريسي، المعيار المغرب، م.س، ٢ / ٤٩٢.
- (٦٨) ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)، المقدمة، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، لبنان، ٢٠٠٠ / ٢٧٣.
- (٦٩) ابن خلدون، المقدمة، م. ن، ١ / ٢٩٤.
- (٧٠) فيلاي، م. س، ٢ / ١٨٢.
- (٧١) الونشريسي، المعيار المغرب، م. س، ٢ / ٤٨٠ - ٤٨١.
- (٧٢) أنظر ترجمته في: مخلوف محمد بن محمد شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية ومكبتها، القاهرة (١٩٣٠ - ١٩٣١)، ١ / ٢٥٤، ابن مريم، م.س / ٤١ - ٤٣.
- (٧٣) شاوش، م. س / ٤٣٤ .
- (٧٤) الحفناوي أبو القاسم محمد الديسي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، ١٩٠٦ / ٢ / ١٥ - ١٦.
- (٧٥) أنظر ترجمته في: ابن مريم، م. س / ٢٢٦.
- (٧٦) فيلاي، م.س، ٢ / ٣٨٩.
- (٧٧) الونشريسي، المعيار المغرب، م.س، ٢ / ٤٩١ - ٤٩٢.
- (٧٨) مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، (الأحوال الاقتصادية والثقافية) منشورات الحضارة، الجزائر، ٢٠٠٩، ٢ / ٢١٩.
- (٧٩) التنبكتي م. س / ١٣٥، الحفناوي، م. س، ١ / ٦٢، ابن مريم، م. س / ٥٣.
- (٨٠) أنظر ترجمته في : الشفشاوني محمد بن عسكر الحسني، دوحة الناشر لمحسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، دار الغرب للتأليف

والترجمة، ط٢، الرباط، ١٩٧٧ / ١٢٤ - ١٢٥، الحفناوي، م. ن، ٢ / ٩٧ - ١٠٠.

(٨١) الورثياني الحسين بن محمد (ت ١١٩٣هـ / ١٧٨٣م) الرحلة الورثيانية، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تقديم محمد بن أبي شنب، دار الكتب العربي، ط٢، بيروت، ١٩٧٤ / ٣٧، الحفناوي، م. ن، ص. ن.

(٨٢) سعد الله أبو القاسم، م.س، ١ / ٥٧.

(٨٣) أنظر ترجمته في : ابن مريم، م.س / ١٤٧ - ١٤٩، التنبكي، م.س / ٣٦٥ - ٣٦٦.

(٨٤) أنظر ترجمته في : الحفناوي، م.س، ٢ / ٦، شاوش، م.س / ٤٣٧.

(٨٥) أنظر ترجمته في : ابن مريم، م.س / ٢٢٤، التنبكي، م.س / ٥٤٧ - ٥٤٨، الحفناوي، م.س، ١ / ٨٥ - ٨٦.

(٨٦) انظر ترجمته في : ابن مريم م.س / ٢٩١.

(٨٧) أنظر ترجمته في : ابن مريم، م. ن / ٢٥٢، التنبكي، م.س / ٤٩٣.

(٨٨) الونشريسي، المعيار المعرب، م.س، ١٠ / ٢٢١، ابن فضل الله العمري أحمد بن حسي (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الثامن، تحقيق بسام محمد بارود، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٢ / ١٠٠.

(٨٩) ابن مرزوق أبو عبد الله محمد التلمساني الخطيب (ت ٧٨١هـ / ١٣٧٩م)، المناقب المرزوقية دراسة وتحقيق سلوي الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، مطبعة النجاح الجديدة، ط١، الدار البيضاء، ٢٠٠٨ / ١٧٢ - ١٧٣.

(٩٠) الونشريسي، المعيار المعرب، م.س، ٨ / ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٩١) أنظر ترجمته في: ابن مريم، م. ن / ٢٤٨ - ٢٤٩، التنبكي، م. ن / ٥٧٢ - ٥٧٣.

- (٩٢) سعد الله أبو القاسم، م. س، ٧٠/١ - ٧٣.
- (٩٣) سعد الله أبو القاسم، م. ن، ٧١/١.
- (٩٤) يحيى ابن خلدون، م. س/ ٥-٣.
- (٩٥) أنظر ترجمته في : ابن مريم، م. س / ٢٥٢، التبكي، م.س/ ٥٧٩.
- (٩٦) سعد الله أبو القاسم، م.س، ٥٩ / ١.
- (٩٧) الونشريسي، المعيار المغرب، م. س، ٥/٦ - ٠٦ .
- (٩٨) الوزان الحسن بن محمد، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط٢، بيروت، ١٩٨٣، ٢ / ٢١.
- (٩٩) فيلاي، م. س، ٢١٤ - ٢١٥.
- (١٠٠) الونشريسي، المعيار المغرب، م. س، ٥ / ١٠٦ - ١١٠.
- (١٠١) فيلاي، م. س، ٢١٦/١ - ٢١٨.
- (١٠٢) الوزان، م. س، ٢٠/٢ - ٢١.
- (١٠٣) ابن مرزوق، المناقب، م. س/ ١٤٨ - ١٨٩.
- (١٠٤) الوزان، م. س، ٢١/٢.
- (١٠٥) ابن مريم، م. س / ٣٩. الونشريسي، المعيار المغرب، م. س، ٨/ ٢٩٠.
- (١٠٦) الونشريسي، المعيار المغرب، م. س، ١١ / ٢٧٨ - ٢٧٩، ١٢ / ٤٨ - ٤٩.
- (١٠٧) الونشريسي، المعيار المغرب، م. ن، ٢/ ٤٧١ - ٤٧٢.
- (١٠٨) التنسي، م. س/ ٢١٢.
- (١٠٩) كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية من خلال نوازل وفتاوي المعيار المغرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، ١٩٩٦ / ٥٤.

(١١٠) الونشريسي، المعيار المغرب، م. ن، ٤١٦/٦ - ٤١٨، كمال السيد أبو مصطفى، م.س/٤٥ - ٤٦.

(١١١) الوزان، م. ن، ٢٥٨/١.

(١١٢) الونشريسي، المعيار، م. س، ٣١٧/١.

(١١٣) العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٩، ٢١١/٢.

(١١٤) ابن خلدون، كتاب العبر، م.س، ١٠٣/٦.

(١١٥) ابن خلدون، كتاب العبر، م.ن، ٥٩/٦.

(١١٦) وفي هذا المجال يأتي ذكر عدد من القبائل ومشايخها من أمثال: قبيلة الحرث بن مالك، وهم من العطاف والديلم، قبيلة زغبة ومنها قبائل بني عامر، قبيلة ذوي منصور من المعقل، قبيلة المنبات من ذوي منصور، أما عن مشايخ القبائل نذكر منهم: عنتر بن طراد بن عيسي، يوسف بن مهدي من مشايخ سويد، داوود بن هلال بن عطاف من مشايخ بني عامر، أنظر: ابن خلدون، م.ن، ٦١/٦ - ١١٠.

(١١٧) ابن خلدون، م. ن، ٦٤/٦ - ٦٥.

(١١٨) حساني، م. س، ٢١/٢.

(١١٩) حساني، م. ن، ص.ن.

(١٢٠) برونشفيك، م.س، ١٨٩/٢.

(١٢١) م. ن، ص. ن.

(١٢٢) الونشريسي، المعيار المغرب، م. س، ٣٣٤/٧.

(١٢٣) الونشريسي، المعيار المغرب، م. ن، ٧٣/٩.

(١٢٤) الونشريسي، المعيار المغرب، م.ن، ص. ن.

- (١٢٥) برونشفيك، م. س، ١٩٤/٢.
- (١٢٦) الونشريسي، المعيار المغرب، م. ن، ١٣٣/٦.
- (١٢٧) برونشفيك، م. س، ١٩٥/٢.
- (١٢٨) حساني، م. س، ١٥/٢.
- (١٢٩) الونشريسي، المعيار المغرب، م. س، ٣٠١/٧.
- (١٣٠) الونشريسي، المعيار المغرب، م. ن، ٣٤ / ٧، برونشفيك، م. س، ١٩٤/٢ - ١٩٥.
- (١٣١) الونشريسي، المعيار المغرب، م. ن، ١١٦/٥.
- (١٣٢) الونشريسي، المعيار المغرب، م. س، ١٤٣/٨.
- (١٣٣) الونشريسي، المعيار المغرب، م. ن، ١٣٧/٨.
- (١٣٤) أحمد ابن مغيث الطليطي (٤٥٩ هـ / ١٠٦٧م)، المقنع في علم الشروط، تقديم وتحقيق فرانثيسكو خابيير أغيري شادابا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، ١٩٩٤ / ٢٦٢ - ٢٦٥.
- (١٣٥) الونشريسي، المعيار المغرب، م. س، ١٥٢ / ٨ - ١٥٤.
- (١٣٦) القيرواني أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن أبو زيد (٣٨٦ هـ / ٩٩٤م) النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات، تحقيق محمد عبد العزيز الدباغ، دار الغر الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٩، ٣٨٧ / ٧ - ٣٩٧.
- (١٣٧) الونشريسي، المعيار المغرب، م. س، ١٧٤/٨.
- (١٣٨) ابن مغيث، م. س / ٢٧٣ - ٢٧٥.
- (١٣٩) القيرواني، م. س، ٢٩٧/٧.
- (١٤٠) الوزان، م. س، ٢٠/٢.

- (١٤١) ابن حوقل ابو القاسم محمد النصيبي (ق ٤هـ / ١٠م) صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢ / ٧٨.
- (١٤٢) الونشريسي، المعيار المرعب، م. س، ٥ / ١٢ - ١٣ - ٢٠ - ١١١.
- (١٤٣) القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٢، ٥ / ١٥٠.
- (١٤٤) الونشريسي، المعيار المرعب، م. س، ٥ / ١١١.
- (١٤٥) ابن حوقل، م.س / ٧٩ - ٨٨.
- (١٤٦) الونشريسي، المعيار المرعب، م. س، ٨ / ١٣٧، ابن مغيث، م. س / ٢٦٢ - ٢٧٥.
- (١٤٧) الونشريسي، المعيار المرعب، م. س، ٥ / ١٢ - ١٣ - ٢٠ - ١١١، عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسي الزياني - حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٢ / ٦٢.
- (١٤٨) العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد (ق ٧هـ / ١٣م) رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية، تحقيق وتقديم وتعليق محمد الفاسي، الرباط، ١٩٦٨ / ١٦.
- (١٤٩) الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد (ت ٥٥٨هـ / ١١٦٢م)، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، د.ت، ١ / ٢٥٠ - ٢٥٥.
- (١٥٠) الإدريسي، م. ن، ١ / ٢٥٠ - ٢٥٥.
- (١٥١) الوزان، م. س، ٢ / ٢٠.
- (١٥٢) يحيى ابن خلدون، م. س، ١ / ١٠.
- (١٥٣) الوزان، م.س، ٢ / ٣٠ - ٤٦.
- (١٥٤) القلقشندي، م. س، ٥ / ١١١.
- (١٥٥) ابن حوقل، م. س / ٧٨.
- (١٥٦) الإدريسي، م. س، ١ / ٢٥٢ - ٢٥٣.

- (١٥٧) بوزياني، م.س / ٢١١ - ٢١٢.
- (١٥٨) الوزان، م. س، ٢٤/٢ - ٣٧.
- (١٥٩) الوزان، م. ن، ٣٣/٢ - ٤٤.
- (١٦٠) الوزان، م. ن، ٣٣/٢.
- (١٦١) الونشريسي، المعيار المعرب، م. س، ١٤٥/٨ - ١٤٦.
- (١٦٢) الوزان، م. س، ١٣/٢.
- (١٦٣) حساني، م.س، ٣٢/٢.
- (١٦٤) ابن خلدون، كتاب العبر، م. س، ١١٦/٦.
- (١٦٥) بوزياني، م.س / ٢١.
- (١٦٦) حساني، م.س، ٣٩/٢ - ٤٠.
- (١٦٧) ابن حوقل، م. س / ٧٨ - ٨٦.
- (١٦٨) الوزان، م. س، ٢٦/٢ - ٢٩.
- (١٦٩) مارسسي، م. س / ١٠٠ - ١٠١، الوزان، م. س، ١٤/٢ - ٣٤، حساني، م.س، ٩٤ - ٩٢/٢.
- (١٧٠) يحيى ابن خلدون، م. س، ٢٢/١.
- (١٧١) الزهري أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ق٦هـ / ١٢م)، كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت / ١١٣ - ١١٤.
- (١٧٢) ابن مرزوق، المناقب، م.س / ١٤٨ - ١٨٩.
- (١٧٣) مارسسي، م. س / ١٠١.
- (١٧٤) ابن مريم، م. س / ٣٨ - ٣٩.
- (١٧٥) مارسسي، م. س، ص. ن.

- (١٧٦) برونشفيك، م.س، ٢/٢٤٢ - ٢٤٣.
- (١٧٧) جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين (دراسة سياسية وحضارية)، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، د.ت / ٢١٥.
- (١٧٨) حساني، م.س، ٢/٩٨.
- (١٧٩) الوزان، م.س، ٢/١٥.
- (١٨٠) مارسى، م.س / ٥٥.
- (١٨١) البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م)، المغرب في ذكر إفريقيا وبلاد المغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت / ٧٠، الوزان الحسن بن محمد، م.ن، ٢/٢٤.
- (١٨٢) محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، دار القلم للنشر والتوزيع، ط ٢، الكويت، ١٩٨٧ / ٢٨٦.
- (١٨٣) حساني، م.س، ٢/٩٨.
- (١٨٤) بوزياني، م.س / ٢٢٧ - ٢٣٦.
- (١٨٥) أحمد مختار العبادي، من مظاهر الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، مجلة عالم الفكر، العدد ١ / المجلد الحادي عشر، الكويت، ١٩٨٠ / ١٥٧.
- (١٨٦) الوزان، م.س، ٢/٢٦ - ٢٧، حساني، م.س، ٢/٤٥.
- (١٨٧) الونشريسي، المعيار المعرب، م.س، ٣/١٥٧ - ٢١٧، ١٠/٢٤٢ - ٤٠٩، ١١/١٢٥.

(188) Dufource Charles Emmanuel, l'Espagne catalane et le Magheb aux XIII et XIV, Paris, 1966/13.

- (١٨٩) مارمول كريخال (ق ١٠هـ / ١٦م)، إفريقيا، تحقيق محمد حجي وآخرين، مطبعة المعارف، الرباط ١٩٤٨، ٢/١٤٩ - ١٥٢ الونشريسي، المعيار المعرب، م.س، ٨/٣٥٦ - ٣٦٤، ٦/٧٨.

- (١٩٠) الونشريسي، المعيار المغرب، م. ن، ١٩٧/٥.
- (١٩١) الونشريسي، المعيار المغرب، م. ن، ٩٠/٥، ١٤٤/٨.
- (١٩٢) الونشريسي، المعيار المغرب، م. ن، ١١/١٤٤، ٨/١٤٤.
- (١٩٣) برونشفيك، م. س، ١٩٥/٢.
- (١٩٤) الونشريسي، المعيار المغرب، م. س، ٦/٤٠٩ - ٤١٦.
- (١٩٥) العقباني محمد بن أحمد بن قاسم التلمساني (ت ٨٧١هـ / ١٤٦٧م) تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر ، تحقيق ونشر على الشنوفي، مجلة الدراسات الشرقية، المعهد الفرنسي داماس، العدد ١٩، ١٩٦٧، / ١١٤.
- (١٩٦) العقباني، م. ن / ١١٨.
- (١٩٧) بروفنسال ليفي، ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، مطبعة المعهد العلمي لآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥ / ٢٠.
- (١٩٨) العقباني، م. س، ص. ن.
- (١٩٩) الوزان، م. س، ٢/٢٧، حساني، م. س، ٢/٤٩.
- (٢٠٠) المجلدي أبو العباس أحمد بن سعيد (ت ١٠٩٤هـ / ١٣٤٦م)، التسيير في أحكام التسعير، تحقيق موسي لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط ١، الجزائر، ١٩٨١ / ٤٨-٥٣، العقباني محمد بن أحمد بن قاسم، م. س / ١٣١ - ١٣٤.
- (٢٠١) المجلدي، م. ن، ص. ن.
- (٢٠٢) العقباني، م. س / ١٣٥.
- (٢٠٣) ابن مرزوق، م. س / ١٩٤، التنسي، م. س / ١٣٠ - ١٣٢.
- (٢٠٤) ابن خلدون، كتاب العبر، م. س، ٧/١٢٨.
- (٢٠٥) الوزان، م. س، ٢/١٨.

- (٢٠٦) العقباني، م.س / ١٢٧ - ١٣١.
- (٢٠٧) العقباني، م.ن / ١٣٥.
- (٢٠٨) حساني، م.س، ٦٠/٢.
- (٢٠٩) العقباني، م.س / ١٢٨.
- (٢١٠) العقباني، م.ن / ١٢٩.
- (٢١١) الونشريسي، المعيار المغرب، م.س، ٩/١٢٠-١٢٢، ٥ / ٢٢٠.
- (٢١٢) حساني، م.س، ٦٥/٢.
- (٢١٣) فيلاي، م.س، ١/٢١٥ - ٢١٦.
- (٢١٤) حساني، م.س، ٤١/٢.
- (٢١٥) حساني، م.ن، ص. ن.
- (٢١٦) الوزان، م.س، ٣٠/٢.
- Dufource Charles Emmanuel , op.cit./134-139.

- (٢١٧) بورويية وآخرون، م.س / ٤٧٩ - ٤٨٠.
- (٢١٨) بورويية وآخرون، م.ن / ٤٧٩ - ٤٨٥.
- (٢١٩) ابن حوقل، م.س / ٧٨.
- (٢٢٠) الوزان، م.س ٣٠/٢.
- (٢٢١) الوزان، م.ن، ٣٢/٢.
- (٢٢٢) الوزان، م.ن، ٢١/٢، فيلاي، م.س، ١/٢١٣ - ٢١٩.
- (٢٢٣) المقرئ شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨، ٥/٢٠٥ - ٢٠٦.

(٢٢٤) ابن مرزوق، م.س / ١٤٨ - ١٨٩.

(٢٢٥) حساني، م.س، ٤٢/٢ - ٤٣.

(٢٢٦) كريحال، م.س، ٣٠٠/٢.

(٢٢٧) الوزان، م.س، ٢١/٢.